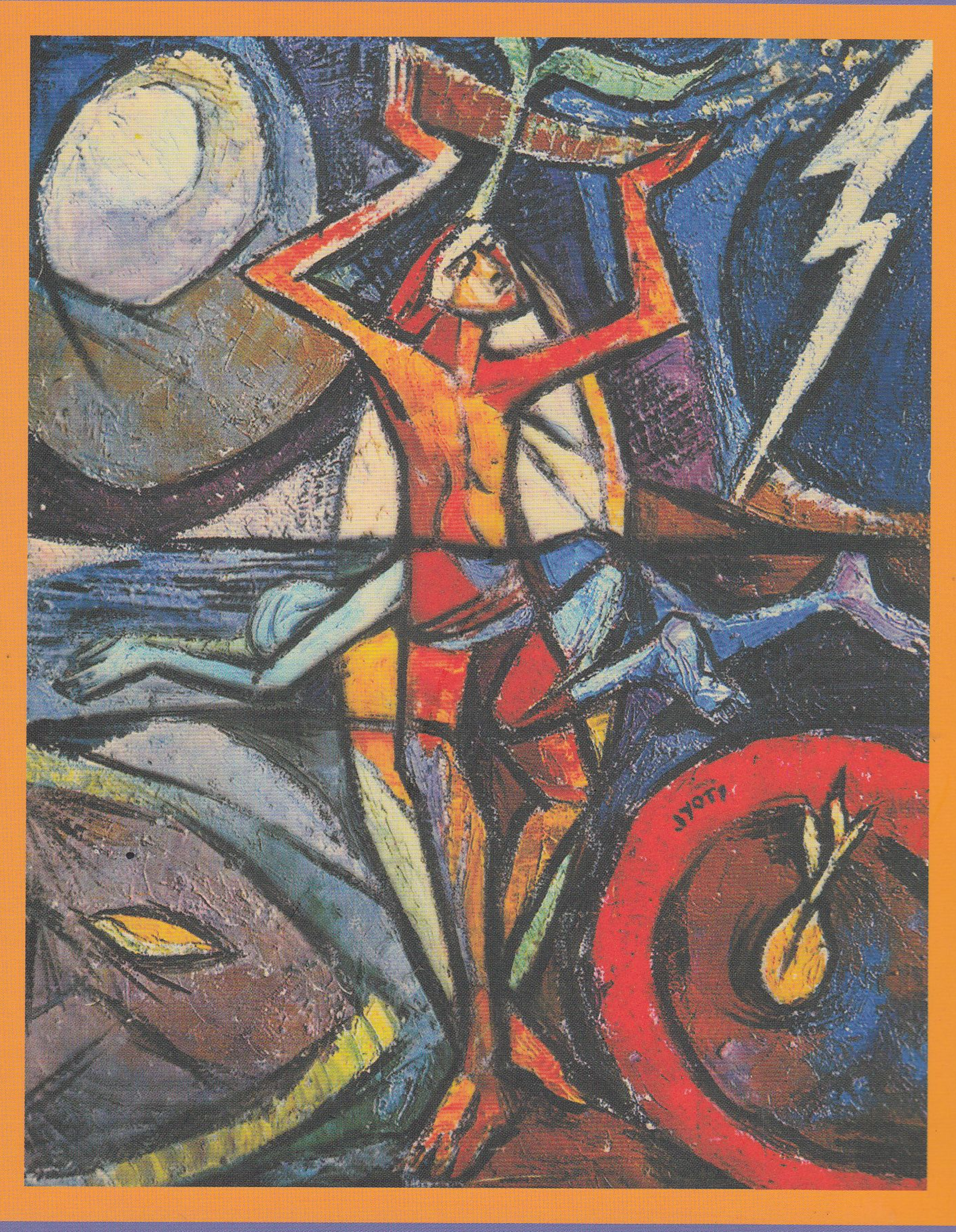
الإجابة الهاربة

روحانية المُرسَل على ضوء سفر يونان



مراجعة وتقديم نيافة الحبر الجليل المعاون البطريركي

الأنبا يوحنا قلته

بقلم الأب / أنطونيوس فايز

راعي كاتدرائية القديس أنطونيوس الكبير للأقباط الكاثوليك بالفجالة

صورة الغلاف

"القيامة"

ن العالمى JYOTI

الإجـــابة الهـــاربـة

روحـانيـة المُرسَل على ضوء سفر يونـان

الأب / أنطونيوس فايز

راعي كاتدرائية

القديس أنطونيوس الكبير

للأقبـاط الكاثوليك – الفجالة

مراجعة وتقديم

نيافة الحبر الجليل

الأنبا يوحنا قلته

المعـاون البطريركي

القاهرة – ٢٠١٠

اسم الكتاب: الإجابة الهاربة – روحانية المرسل على ضوء سفر يونان
تأليف: الأب أنطونيوس فايز كاهن بطريركية الأقباط الكاثوليك بالفجالة
مراجعة: الأنبا يوحنا قلته
الطبعة: الأولى أغسطس ٢٠١٠
رقم الإيداع: ٢٠١٠/١٥٦٩٣

تقديم

التوغل في تاريخ العهد القديم، وفي نصوصه المقدسة، متعة روحيّة ومتعة تاريخيّة ومتعة ثقافيّة، هذا ما قدّمه الأب أنطونيوس في رحلته مع سفر يونان النبيّ.

أمّا المتعة الروحيّة، تغمر الإنسان حين يدرك أنّ الله، الخالق القدّوس هو الذي خلق الإنسان، وبعد أن تمرّد على خالقه وآثر الخروج من الفردوس، لم يدعه الله ولم ييأس منه، بل سعى إليه كابن ضال، أقام معه علاقة منذ البداية (ص٢٥). وكانت الكلمة هي الجسر بين الله وبين الإنسان، فالنبوّة في كلّ النصوص الكتابيّة هي دعوة خاصّة تأتي من الله إلى الإنسان النبيّ (ص٢٥)، وهذه الدعوة إنّما هي حركة، ومغامرة، فقد دعا الله يونان لكي يوقظ في أعماقه الحياة من جديد، وأن يحمل أمانتها.

دعاه الله لكي يذهب إلى نينوى، عاصمة الأشوريّين (٧٠٤- ٦٨١ق.م) مدينة الدماء والعبث والترف، مدينة الفتنة والزنا، إنّها رمز الحضارة الأشوريّة القاسية التي انتهت بالدمار والخراب، كما انتهت عواصم الحضارات القديمة التي سرى فيها سُمّ الآثام، فانهارت وبقيت عبرة وذكرى، هكذا صوّرها سفر يونان (ص٢٨).

وليس الكتاب المقدّس تاريخًا أو جغرافية أو سجلاً لأحداث العصر، إنّما هو صدى لصوت الله في العهود القديمة، وكلمات الله هي النور الذي توهّج في ظلمات عصور القسوة والحروب وسطوة الشهوات (ص٣٢). ولقد حدّد الوحي المقدّس بكلمات نورانيّة شاعريّة خالدة رسالة النبيّ، كلّ نبيّ - يعدّ لمجيء زمن الخلاص، تقول الكلمات:" قبل أن أصوّرك في البطن اخترتك، وقبل أن تخرج من الرحم كرّستك وجعلتك نبيًا للأمم، لتقلع وتهدم وتهلك ولتنقض وتبني وتغرس" (ص٣٠). هذه خلاصة رسالة أنبياء العهد القديم، إنّهم أصحاب دعوة إلهيّة محدّدة، أن يوقظوا الإنسان للعودة إلى محبّة الله ورحمته وعدله.

لا تزال مدينة نينوى، تنبض بالتاريخ حتّى اليوم في قلب العراق، بقايا آثارها تحكي قصّة حضارة وصدى زيارة يونان النبيّ يتردّد في متاحفها ومدارسها. إنّها رسالة عبر القرون تنير للإنسانيّة الطريق حتّى لا يجرفها تيّار حضارة الموت أو حضارة المتعة، وحتّى لا تعود إلى عهود وثنيّة جديدة تنتصب فيها آلهة المال والسلطة والعلم، وتتنكّر لرحمة الله وعنايته، وعلى مرّ العصور، يظل الله هو الداعي لكلّ إنسان، وهو الذي يرسله، بل وهو الذي يحدّد له مهده ولحده.

ولم يأت كتاب الأب أنطونيوس بكمّيّة من المعلومات التاريخيّة، أو كدراسة علميّة، وإنّما حمل أيضا عناصر حياة روحيّة مسيحيّة تقوم على التأمّل وإيقاظ الضمير، ومراجعة مسيرة الحياة (ص٤١)، كما يضع الكتاب سطورًا في مناجاة الله، لا تخلو من سمات صوفيّة فيها شفافية ونقاء.

أما هروب يونان، يصوّر قصّة الإنسان مع الله، في العهد القديم، كما في العهد الجديد، كما في كلّ زمان ومكان، إنّه هروب من صوت الله في الضمير، من الخوف من ثقل المهمّة والرسالة، ومحاولة التملّص من مواجهة الواقع.

عبّر داود النبيّ عن لحظة الخوف فصرخ أين أهرب من وجهك يا ربّ؟ وصاح بولس الطرسوسيّ وهو ملقًى على الأرض أمام باب دمشق وقد لفّته سحابة من نور متوهج، من أنت؟ ماذا تريد أن أفعل؟ وأغلب الظن في عصرنا يغلب الهروب على حياة البشر، في محاولة لإسكات ضميرهم، لكنّ كلمة الله القدّوس خطيرة، لا تسقط ولا تضيع هباء بل تلاحق الإنسان حتّى يدرك عظمة الدعوة وقداسة الإله الداعي، فيلبّي النداء برغم ضعفه وقلقه. رفض يونان دعوة الله للذهاب إلى نينوى واتجه طريقا آخر إلى مدينة ترشيش، إنّه صورة للإنسان في عصرنا، الذي يهرب من التوغّل في واقعه ومجتمعه ليشعل شمعة وسط الظلام، وهو هروب من تقديم التضحية والعطاء، بالرغم من أن سعادة العطاء أعظم بكثير من متعة الأخذ، ولكنّ الخالق القدّوس برحمته يلاحق الإنسان ولا يتركه أبدا، إنّها متعة ثقافيّة، تفتح عقل البشر ليتأمّل المعجزات المتلاحقة في قوانين الطبيعة.

نأتي إلى قلب الحدث في سفر يونان، يعالجه الأب أنطونيوس بأسلوب روحيّ عميق، لا يناقش تاريخيّة واقع الحدث، هل حدث فعلاً أن ألقى يونان في البحر الهائج وهو يعبر إلى ترشيش هاربا من رسالته إلى نينوى، أو بمعنى آخر هل يفسّر الحدث حرفيًا؟ أم أنّ الرمز والمعنى الإلهيّ هو هدف السفر كلّه؟

ألقى البحارة بيونان في خضمّ الأمواج، استلقاه الحوت فاغرًا فاه، ابتلعه، صلّى يونان من جوف الحوت، وقَبِل الربّ صلاته فقذفه الحوت على الشاطئ. وينبغي ألاّ نقرأ نصّ الكتاب المقدّس، كنصّ علميّ أو تاريخيّ كما سبق وأشرت، وإنّما يختلط التاريخ والواقع بالرمز، ويمتزج بثقافة الكاتب، فيعبّر عن إيمانه وثقته بالله في سطور تحكي أحداثا. فهدف الكتاب المقدّس دوما، من السطور الأولى إلى آخر سفر الرؤيا هو " اكتشاف الله القدّوس، وعجائبه، وحكمته، وعنايته بالإنسان، إنّ الكتاب المقدّس منارة تنير الجهات الأربع ليتجه صوبها ضمير الإنسان"، لك أن تأخذ سفر يونان بالمعنى الحرفيّ، أو أن تأخذه بالمعنى الروحيّ الرمزيّ، وفي الأمرين يمكن أن نلمس ما قدّمه الوحي من رسالة وعبرة:

الله القدّوس الخالق، ضابط الكلّ، قدرته لا نهائيّة وأعماله عظيمة.

الطبيعة بما عليها من كائنات في خدمة كلمة الله ورسالته إلى الإنسان، البحر، النهر، والجبال، القمر والشمس والنجوم، يستخدمها الله في عجائبه، الطير كالغربان التي أطعمت إيليّا النبيّ، والحمار الذي تكلّم، والحوت الذي ابتلع يونان.

يقدّم الكتاب الشرّ وأهله في صورة وحش كاسر، فقد وُصِف ملك بابل بالوحش الضخم/ أو أعداء الإيمان كوحوش بحريّة.

الأرقام لها دلالة أيضا في النصّ الكتابيّ، فالرقم أربعون، وسبعة، إنّها ترمز إلى نوع من الكمال والنهاية.

من أروع ما قدّمه سفر يونان هذه الصلاة (ص٨٩)، التي انطلقت في جوف الحوت، الرمز واضح لا لبس فيه، فللصلاة قوّة تفوق تصوّر البشر، تحدث

المعجزات، إنّ صلاة خاشعة تخرج من قلب نقيّ لهي بخور تسبيح ومجد الله القدّوس تخترق كلّ الحواجز والقوانين الطبيعيّة...

لم ييأس الله من ضعف وخوف يونان، قاده بعد هروبه، وألقى إليه كلمة ثانية، اذهب إلى نينوى، ستحدث المعجزة، سيتوب أهل نينوى. هنا يجسّد يونان النبيّ، شخصيّة كلّ إنسان مؤمن، تحيط به العقبات، يملأ قلبه الخوف من المستقبل، يتعرّض لتجارب عنيفة مرعبة، لكنّ الإيمان والرجاء والمحبّة سلاح لا يقهر، ولا يعرف الهزيمة، والصلاة هي الجسر الذي يمتدّ بين الإنسان الضعيف المجرّب، وبين الله المطلق الأبديّ القدير.

تهنئة للأب أنطونيوس، إنّه عمل رائع، وجهدّ شاق، لكنّها رسالة سامية من جوف التاريخ والحوت إلى عالم في أشدّ الحاجة إلى الإيمان والصلاة.

+ الأنبا يوحنّا قلته
المعاون البطريركيّ

عيد الرسل ٢٩ يونيو ٢٠١٠ م
٥ أبيب ١٧٢٦ ش

مقدّمة الكاتب

يتناول كتاب " الإجابة الهاربة – روحانية المُرسَل " روحانية المؤمن المسيحي، انطلاقا من سّر العماد. فسّر العماد (سّر الانتماء) يدخل الإنسان في علاقة كيانيه مع الله الآب، في شخص المسيح، بقوة الروح القدس، ويطلق على هذه العلاقة البعد الرأسي. في الوقت نفسه، يدخل المُعَمد في علاقة كيانيه مع المؤمنين، أعضاء جسد المسيح السري، ويطلق على هذه العلاقة البعد الأفقي. كلا البعدين متكاملان، ينميان سوية في اتجاه نحو العالم، وتحقيق الحياة الفضلى.

قد اخترنا نموذجًا كتابيًا ألا وهو شخصية يونان النبي، ليعبر عن مسيرتنا الروحية انطلاقا من البعدين السابقين. يتناول الفصل الأول مدخل إلى سفر يونان، والمؤلف، وتاريخ كتابة السفر، والأسلوب الأدبي المستخدم، وبُنية النص. كما يتناول الفصل الثاني مبادرة الله ودعوته للإنسان في شخص يونان، المدعو إلى الانفتاح على الرسالة تجاه العالم. الله يدخل تاريخ الإنسان، يرغب أن يشاركه مسيرة حياته نحو الانفتاح على الآخر– البعيد– المختلف. في حين يتناول الفصل الثالث رد الإنسان على هذه المبادرة الإلهية، وفي حالتنا تتسم الإجابة بالصمت والهروب، فنحاول تحليل الأسباب والتوابع لهذه الإجابة.

يؤكد الفصل الرابع أن التاريخ بين يدّي الله، فلا هرب من أمام الله مهما حاول الإنسان. فتقاس الحياة الروحية بمقدار ما يدخل الإنسان في واقع حياته وألا يهرب منه. فيدفعنا الله والآخرون نحو واقعنا لنواجهه. فتصبح الأزمة "النوّة" لحظة لقاء حقيقي مع الله، مع الذات، ومع الآخر. تتحقق هذه المعادلة في الفصل الخامس، حيث يقبل يونان أن يحاكى ويروي حياته دون خجل أمام الآخرين، حيث الإيمان في واقع الحياة، مكتشفا الخطيئة الكامنة فيه، وفي كل واحد منا. كما يتناول الفصل السادس موضوع الصلاة من واقع الحياة "من جوف الحوت"، من حيث أماكن الصلاة، وأزمنتها، وأشكالها، ومضمونها.

يقدم لنا الفصل السابع مدى ثقة **الله** في الإنسان، **الله** لا يكلّ ولا يتعب من دعوة الإنسان، وإتاحة الفرصة له من جديد.

هذا يقودنا إلى مدى أهمية الالتزام الخلاصي كعنصر أساسي من أجل حياة روحية حقيقية، حيث الاستمرارية ومواجهة صعوبات الحياة كثمن باهظ من أجل الخير، هذا ما يقدمه الفصل الثامن. بينما يتناول الفصل التاسع موضوع: " توبة **الله** " وذلك في المفهوم الكتابي، فالخلاص مجاني، فالله يرغب في خلاص جميع البشر دون تمييز. يتجلى لنا في الفصل العاشر القصد الأساسي لرسالة سفر يونان فيقدم لنا حقيقة **الله** الكامنة في الكتاب المقدس: " إله المفاجآت "، يفوق حسابات البشر، **الله** أمين نحو ذاته وقصده. يقدم الفصل الحادي عشر والأخير موضوع الرسالة تغير الحياة، فالالتزام بواقع حياتنا الطريق الأكيد من أجل حياة أفضل، وروحانية مسيحية حقيقية نابعة من الكتاب المقدس.

ممّا لا شكّ فيه، عمل مسيرة روحيّة حول سفر يونان النبيّ لهو تحدٍّ حقيقيّ، ربما ثمانٍ وأربعون آية فقط تبدو غير كافية لمسيرة روحيّة مدّة ستّة أيّام، إنّما هي، في الوقت نفسه، كافية لأن تدعونا إلى التوبة بمعناها العام، وبمفهومها الخاص في بعدها الإرساليّ.

يمكننا أن نتساءل:" لماذا نختار شخصًا يهرب من **الله** لكي يساعدنا على الاقتراب من **الله**؟ لماذا نذهب للبحث عن شخص مُتصلّب القلب لكي يساعدنا على انفتاح قلوبنا تجاه **الله**، والآخرين، والكنيسة؟ لماذا نسأل شخصًا قصير النظر حتّى يعلّمنا أن ننظر بعيدًا؟".

عادةً، في رياضتنا، نبحث عن أشخاص أكفَاء، ليساعدونا على تجديد حياتنا، بينما هنا العكس!. ربّما لأن تاريخ أيّ شخص يتضمّن شيئًا نتعلّم منه. ربّما يونان النبيّ هو كلّ فرد فينا، وجماعتنا، والكنيسة.ربّما كان رمزاً للإنسان ودوافعه أكثر منه شخصية تاريخة، ربّما تاريخه هو تاريخ كلّ واحد فينا.

عندما نأخذ نصًّا كتابيًّا بين أيدينا، فيشير أنّنا نأخذ حياتنا بين أيدينا: نضعها تحت نور الكلمة، نقرأها بنور الكلمة، نُشكّلها ونجدّدها باسم الكلمة،

إنّ ممارسة ذلك لهو دائمًا عمل متعب وشاقّ وخطر، وهو أيضًا أسلوب فعّال لمشاركتنا في تاريخ الخلاص، أي له بعد خلاصيّ لنا ولمن نحيا معهم، نعمل معهم، نحبّهم ويرتاحون معنا. إنّه زمن نعمة، زمن مخاطبة القلب، زمن الهدوء الخارجيّ والباطنيّ. إنّه الجلوس تحت فعل الكلمة على مثال مريم الجالسة تحت قدمي يسوع تصغي.

تساعدنا رحلة يونان النبي لاكتشاف القواعد الروحيّة " للرسالة"

أوّلاً: رسالة تربويّة من الله إلى النبيّ ذاته: " إذا كنتَ أنت أيّها الإنسان، قد أشفقت على نبات، فأنا الله، أفلا أشفق على البشر؟ ".

هكذا ينتهي سفر يونان بهذا السؤال الساخر، لكي يشرح منطق اختيار الله، والذي يفوق ويتخطّى المنطق البشريّ، وليؤكّد لنا، في الوقت نفسه، محبّته غير المحدودة للبشر.

لم يقلِ النصّ كيف انتهت قصّة يونان النبيّ. إنّما شيء واحد متأكّدون منه في نهاية لقاءاته وتصادماته مع الله، وهو أنّ يونان لم يعد كما كان: لقد اختبر أشياء وأوضاعًا كثيرة؛ التقى بأناس عديدين، سمع أحاديث كثيرة.

الرسالة تغيّرنا! تلك هي خبرتنا. لا أحد منّا هو مثلما بدأ. لقد تعلّمنا أن نقيّم الأشياء ونعطيها أحجامها. فالأشياء التي كنّا نظنّ أنّها جوهريّة صارت ثانوية. فأصبحنا أغنياء بأشياء كثيرة كنّا نظنّ أنّها تُفقرنا، لَقد طهّرنا أفكارنا بأفكار أخرى، وتعلّمنا أن نتقاسم مع من هو مختلف عنّا، تعلّمنا أن العطاء يعني المقاسمة والمقاسمة تعني الأخذ. في الواقع، اكتشفنا أن الأشياء الجوهريّة لا تُرى بالعين المجرّدة.

يونان... شخص يهرب من الله، وبالرغم من ذلك هو مدعوّ..
يونان... شخص ذو قلب مُغلق، وبالرغم من ذلك هو نبيّ..
يونان... شخص عسر الفهم أمام طرق الله ...
يونان... مسيرة اكتشاف "الله محبّة بلا حدود" ...
يونان... ربّما يكون كلّ واحد منا في مسيرة حياته ...

الفصل الأول

حضور الله في التاريخ

" مناجاة "

ها نحن هنا، أمامك يا ربّ

مع بداية هذه الأيّام المباركة،

نرغب أن نقضيَها معك،

ها قد تجمّعنا، كلّ واحد من حيثُ أتى،

محمّلين بحقائب متنوّعة الأشكال، والأحجام والألوان، أحيانًا ثقيلة أيضًا.

ها قد جمعنا استعدادنا، والذي نضعه تحت أقدامك،

سوف تخرس وتصمت كلماتنا،

لنعطي كلمتك مساحة، لتحمل لنا حياة (إنّ كلمتك روح وحياة).

فقرنا هو خلفيّة لغناك. نارك (نار كلمتك) تحرق وتصهر عنادنا ومقاوماتنا،

وصلابة خطايانا.

نطلب من مريم، أمّ السكون والإصغاء، أن ترافقنا في مسيرتنا، وتقودنا إليك،

(حيث كانت تصغي وتحفظ كلّ هذا في قلبها) آمين.

١- المؤلف والتاريخ

يشير النصّ إلى يونان بن أمتّاي، الذي عاش تحت مُلك يربعام الثاني عام ٧٨٣- ٧٤٣ ق .م. " وهو الذي استردّ لإسرائيل الأرض التي خسرتها من لبو حماة في الشمال إلى البحر الميت جنوبًا، لما قال الربّ على لسان عبده يونان بن أمتّاي النبيّ الذي من جَتّ حافر"[١].

إنّما هذا التاريخ غير دقيق أو محتمل لعدّة أسباب:

١-١- المصطلحات:

لم يواجه الدارسون صعوبة لإثبات أن بعض المصطلحات المستخدمة في سفر يونان لم تستخدم عامّة، أو في نصوص كتابيّة تعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد، إنّما مع نصوص لاحقة.

أمثلة على ذلك:

يونان ٦/١ يستخدم التعبير الآرامي الحديث " لعلّه يفكّر فينا "، بينما يفضّل في العبريّ الكلاسيكيّ التعبير " لعلّه يتذكّرنا".

التعبير " إله السماوات " هو تعبير حديث، مستخدم في نصوص حديثة مثل سفر عزرا[٢]؛ ونحميا[٣]. كذلك في بداية صلاته الموجّهة إلى الله فعل الاستدعاء " آه يا ربّ "[٤]، مستخدم في عصور متقدّمة[٥].

١-٢- المراجع الكتابيّة

تأثّر سفر يونان بثلاثة أنبياء، أو على الأقلّ كان لهم اتّصال مباشر بنصّ يونان وهم:

أ- **إرميا النبيّ**: دعوته كنبيّ ٦٢٧ق.م.؛ يونان على مثال إرميا هو أيضًا نبيّ الأمم: " قم اذهب إلى نينوى، المدينة العظيمة وناد بأنّ أخبار شرورها صعدت إليّ "[٦]؛

---

١ - ٢ مل ١٤/ ٢٥.
٢ - عز ١/ ٢؛ ٧/ ١٢،٢١.
٣ - نح ١/ ٤- ٥ ؛ ٢/ ٤،٢٠.
٤ - يون ١/ ١٤؛ ٤/ ٢.
٥ - نح ١/ ٥،١١؛ دا ٩/ ٤.
٦ - يون ١/ ٢؛ ٣/ ١-٢.

" وأعطيك اليوم سلطة على الأمم وعلى الممالك لتقلع وتهدم وتهلك، ولتنقض وتبني وتغرس"[٧]. إنّ الدعوة إلى التوبة عنصر أساسيّ مشترك بينهما: " وأن يلبس البشر مع البهائم مُسوحًا، ويصرخوا إلى الله بشدَة، ويرجعوا عن طريقهم الشرّير وعن العنف الذي فعلته أيديهم"[٨] ؛ " فالآن قُل لرجال يهوذا وسكّان أورشليم: هذا ما قال الربّ: أهيّئ عليكم شرًّا وأُدبر عليكم مكيدة، فارجعوا كلّ واحد منكم عن طريقه الشرّير، وأصلحوا سلوككم وأعمالكم"[٩].

يتحدّث نصّ (يونان ٣/٩-١٠) عن عودة الله (ندم الله)، وعن العقاب المُعلن لأهل نينوى: " لعلَ الله يرجعُ ويندمُ، ويعودُ عن شدّة غضبه فلا نهلكُ. فلمّا رأى الله ما عملوهُ وأنّهم رجعوا عن طريقهم الشّرير، ندم على الدَمار الذي قال إنّه ينزله بهم، ولم يفعل". هذا التعبير في: " لذلك اتّزروا بالمُسوح! ولولوا والطموا الخُدود، فحدّةُ غضب الربّ لم تنصرف عنّا"[١٠]. ندمُ الله، عن الشّر المنذر به على أهل نينوى (يون ٣/١٠)، في (ار ١٨/٧-٨)[١١]. صدى رغبة يونان في الموت[١٢]،وفي أرميا[١٣].

ب- **حزقيال**: وهو المعاصر لسقوط أورشليم وزمن الأسر ٥٨٧ق.م. نبوءة حزقيال حول مدينة صور[١٤] التي هي صورة ونموذج للمدن التي شيّدت دون الله. يُصوّر صور "المدينة كسفينة رائعة الجمال"[١٥] محاطة بالمياه ، ساعدت يونان في وصف السفينة وفي صراعها مع الأمواج والنّوات[١٦].

ج - **يوئيل النبيّ**: (حوالي ق.٤ق.م.؟) كلا النصّين لهما ينبوع مشترك من التقليد النبويّ الكتابيّ:" ومرّ الربّ أمامه ونادى:" الربُّ الربُّ إلهُ رحيمٌ حنونٌ، بطيءُ عن الغضب وكثيرُ المراحم والوفاء" (خر ٣٤/٦-٧)[١٧]. هذا التوافق يظهر جليًّا في نصّ يونان: "فقال الله ليونان: "يحقُّ لي أن أغضب إلى الموت". فقال الربُّ : " أشفقت أنت على اليقطينة التي لم تتعب فيها ولا ربَيتها، وإنّما طلعت في ليلة ثم هلكت في ليلة"[١٨]. حيثُ يقدّم سرّ الرجاء فالله يندم ويرجع عن موقفه

---

٧ - إر ١/١٠.
٨ - يون ٣/٨.
٩ - إر ١٨/١١؛٢٣/٢٢؛٢٥/٥؛٢٦/٣٥/١٥؛٣٦/ ٣،٧.
١٠ - إر ٤/٨؛ ٢٣/٢٠؛٣٠/٢٤.
١١ - إر٢٦/ ٣،١٣،١٩؛ ٤٢/١٠.
١٢ - يون ٤/٣،٨.
١٣ - إر ١٥/١٠؛٢٠/١٤-١٨.
١٤ - حز ٢٦-٢٧.
١٥ - حز ٢٧/ ٣-٤،٢٦-٢٧.
١٦ - يون١/٤ إلخ.
١٧ - يعتمد إرميا علي هذا النص، بمفهوم أكثر قومية تجاه الشعب العبراني.
١٨ - يون ٣/٩-١٠.

تجاه الشرّ والغضب والعقاب المعلن عنه، ومع نصّ يوئيل: "مزّقوا قلوبكم لا ثيابكم. فتوبوا إلى الرّب. الرّبّ حنونٌ رحومٌ. بطيء عن الغضب، كثيرُ الرّحمة، نادمٌ على السوء، لعَلَهُ يرجعُ ويندمُ ويُبقي وراءهُ بركةً، فتُقرّبون تقدمةً وسكيب خمر للرّب إلهكم"[19].

١-٣- الإطار الاجتماعيّ والدينيّ

كان لخبرة الأسر (٥٨٧- ٥٣٧ ق.م.)، المؤلمة لشعب الله المختار، وجهان. الأوّل سلبيّ: انقلاب كيانيّ، فبعد أن كانت إسرائيل مركزًا ثقافيًا دينيًا وسياسيًا وعسكريًا ذا أهمّيّة ومكانة كبرى بين الدول المجاورة، اختبر الشعب الإسرائيليّ النزوح عن أورشليم (أرض الموعد- الملك)؛ وهدم الهيكل (علامة حضور الله)، لقد اختبروا هجران الله لهم " قالت صهيونُ: " تركني الرّبُّ ! تركني ونسيني السيّدُ ""[20].

لقد وضعوا اعتمادهم وكلّ ثقتهم في الهيكل، فبالرغم من خطاياهم، ظنّوا أن الله مجبر أن يدافع عنهم، على الأقل حتّى لا يفقدوا ماء الوجه أمام الشعوب الأخرى. الوجه الثاني إيجابيّ: زمن نعمة؛ بالرغم من ذلك، كان زمن الأسر زمن نعمة، زمن إعادة قراءة تاريخهم على ضوء عمل الله؛ زمن إعادة صياغة النصوص المقدّسة من حيث التجميع والتنظيم والتنسيق؛ إعادة صياغة أشكال العبادة (الطقوس)، والتي ساعدتهم على إحياء العبادة في زمن الشتات. بعد العودة من الأسر وإعادة بناء الهيكل، تفتّحت مشاعر إيمان وممارسات جديدة مستقاة من مقاصد أصيلة، كشفت عن فخاخ وعقبات أمام الشعب الإسرائيليّ، فبعد هيكلة النظام الدينيّ توجّه الإحساس الدينيّ، بصورة مفاجئة،إلى الإلحاح على الهُويّة القوميّة والدينيّة، فظهر البعد السلفيّ - الكهنوتيّ، والتعصب.

فإن كانت الخطيئة سببًا مباشرًا في هدم الهيكل وأورشليم والأسر، لذلك وجب الابتعاد عن الأسباب وتحاشي تكرار هذه الخبرة في المستقبل. هكذا انتشرت

١٩ - يوئ٢/١٣-١٤.
٢٠ - أش ٤٩/ ١٤:٦٢/ ٤أ.

طقوس التوبة والتكفير: " وفي اليوم الرابع والعشرين من الشهر نفسه، اجتمع بنو إسرائيل للصيام، وعليهم مُسوحٌ وترابٌ. وانفرد نسلُ إسرائيل عن جميع الغرباء ووقفوا واعترفوا بخطاياهم وذنوب آبائهم"[21]. وطرد النساء الغريبات: " خُنّا إلهنا وأخذنا نساء غريبات من أمم الأرض، ومع ذلك فلا يزال الآن رجاءٌ لإسرائيل. لنقطع الآن عهدًا مع إلهنا على إخراج جميع النّساء وأولادهنّ، وفقًا لمشورتك يا سيدي ..."[22]. ومُنع الزواج المختلط[23]. وأصبح السامريّون هامشيّين، تقريبًا يعاملون كهراطقة. والنظرة السلبيّة للغرباء والوثنيّين التي بلغت أقصاها[24].

هكذا أصبح " يهوه " إله إسرائيل فقط. في هذا الإطار والخلفيّة التي تُعمّق الاختلاف والتمييز مع كلّ من هو ليس إسرائيليًا وقوميًا، يظهر النبيّ يونان الصغير/ الكبير.

١-٤- عقليّة الكاتب

لقد تأثّر، دون شكّ، يونان النبيّ بالإطار الاجتماعيّ والدينيّ الذي ذكرناه آنفًا، ويثير تساؤلات إجابتها النهائيّة في الإنجيل.

نحن أمام نبيّ شرب وتغذّى من ثقافة قوميّة قويّة،إلاّ أنّه في الوقت ذاته يقوم بخطوات وقفزات نوعيّة: **الله يريد خلاص جميع البشر، وعلى إسرائيل أن تعي ذاتها ودورها كوسيلة وأداة لخلاص الجميع**. أليس هذا هو الوعد الذي وعد به "يهوه" إبراهيم: "يتباركُ في نسلك جميعُ أمم الأرض لأنّك سمعت لي"[25].

كلّ ما تقدّم، يجعل من الصعب نسب النصّ الخاصّ بيونان النبيّ إلى القرن الثامن ق.م. هناك تناقض شديد على مستوى اللغة المستخدمة، والمشاكل المقدّمة، وقضيّة الانفتاح على الآخرين وخلاصهم، والبعد المسكونيّ والشموليّ يتجاوز ما قدمه إشعيا الثاني والثالث.

---

٢١ - نح ٩/١-٢.
٢٢-عز ١٠/٢-٣.
٢٣ - عز ٩؛ خر٣٤/١٢-١٦،١٣؛تث٧/٣.
٢٤ - نح ١٣/٣.
٢٥ - تك ٢٢/١٨؛١٨/١٨.

يشير ما تقدّم إلى أنّ النصّ يعود إلى حقبة ما بعد السبي.

اتّجه النُقّاد والمُفسرون أنّ النصّ يعود إلى الفترة ما بين سنة ٤٠٠ - ٢٠٠ ق.م. في الفترة ما بين نصوص سفر الأخبار ونصّ دانيال النبيّ. بالتأكيد ليست قبل ٥٣٨ق.م. يعود لنهاية زمن السبي، وليس بعد ٢٠٠ ق.م. حيث انتهت صياغة سفر يشوع بن سيراخ حوالي ١٨٠ ق.م. والذي عرض قائمة الأنبياء الصغار ومنهم يونان النبيّ: " بارك الله ذكرى الأنبياء الاثني عشر أيضا، وجعل عظامهم تنهضُ من القبر، لأنّهم شجّعوا بني يعقوب وخلّصوهم بما كان لهم من رجاء راسخ"[٢٦].

١- الأسلوب الأدبيّ

تُرى ما هو الأسلوب الأدبيّ الخاص بسفر يونان النبيّ؟

بداية، يمكننا أن نقول ما ليس هو. لا يمكن قراءة أو إدراج النصّ في إطار الروايات التاريخيّة، من حيث زمن يونان النبيّ التاريخيّ والذي ذكرناه سابقًا، فينقص النصّ العناصر التاريخيّة العديدة، والجغرافيّة، والبيئيّة والتي تؤكّد تاريخيّة النصّ. ومن جهة أخرى، عناصر مثل: الحوت، ونبات اليقطينة، والدودة، تقود القرّاء إلى مستوى أعمق.

أمام الأمور المتشابكة التي في النصّ، تؤكّد أنّ الكاتب لا يريد أن يقف أمامها كأحداث، إنّما يريد أن نرى فيها ذواتنا: **يونان هو كلّ واحد منّا، والملاّحون، والبحّارة، وأهل نينوى هم أهل عصرنا الذين لم يكتشفوا المسيح بعد. نينوى هي نموذج للمدينة التي تأسّست بدون الله**[٢٧].

ممّا سبق، فإنّ سفر يونان لا يحكي سيرة ذاتيّة للنبيّ ، ولا هو أيضًا نصّ أسطوريّ حيثُ يمكن للقارئ تقمّص بطل الأسطورة أو الاقتداء به، وهذا لا ينطبق على شخصيّة يونان النبيّ. اتّفق معظم الدارسين أن يصنّفوا الأسلوب

٢٦- سير ٤٩/١٠.

27-H.W.Wolff, *Studi sul libro di Giona*, Paideia, Brescia 1982,62.

الأدبيّ لسفر يونان أنّه " رواية تعليميّة ". إذًا، هو رواية تقدّم تعليمًا للقرّاء. إنّه تاريخنا، تاريخ كلّ واحد منّا (فردا أم جماعة). إنّه تاريخنا مع الله، تاريخ مسيرة علاقتنا مع الله، إنّه الأسلوب المناسب لاكتشاف ونموّ هذه العلاقة، سواء للقريبين أو البعيدين. فيجسّد هذا السفر قمّة تعليم العهد القديم، وفي الوقت نفسه هو مقدّمة وتمهيد للعهد الجديد: محبّة الله التي اختبرها شعب إسرائيل وأصبح واعيًا بها، ورغبة الله الحثيثة من أجل خلاص الشعوب الأخرى، ودور شعب إسرائيل في تاريخ هذا الحبّ.

أخيرًا، يمكننا أن نؤكّد أنّ سفر يونان هو **نصّ كتابيّ** (مُوحَى به)، يتضمّن عنصرين: أوّلاً: هذا السفر ضمن الكتب القانونيّة. ثانيًا: السفر يحتوي على مصادر كتابيّة وشواهد مباشرة.

٣- بُنية النصّ

يمكن تقسيم النصّ إلى قسمين أساسيّين:

يون ١/١-٢/١١، ويون ٣/١-٤/١١.

القسم الأوّل: يون ١/١-٢/١١	القسم الثاني: يون ٣/١-٤/١١
الله ويونان: ١/١-٣	**الله ويونان:** ٣/١-٣
الله يدعو، يونان يهرب	الله يدعو، يونان يطيع
الله والوثنيّون: ١/٤-١٦	**الله والوثنيّون:** ٣/٤-١٠
العاصفة تهاجم السفينة	البشرى لأهل نينوى
الله ويونان: ٢/١-١١	**الله ويونان:** ٤/١-١١
النجاة والصلاة	درس في الحبّ

يتّضح من هذا التقسيم، أنّ **الله يقود كلّ الأحداث** (هو مفتاح النصّ): **الله** هو بطل القصّة الأساسيّ. يبدأ النصّ بكلمة **الله** وينتهي بها ، فيمكن اعتباره نموذجا لنصوص الاحتواء. ففي مركز اهتمام **الله**: هناك الوثنيّون، والملاحون،

والبحّارة، وأهل نينوى الذين يجسّدوننا الآن، والذين لهم الحقّ في محبّة **الله**. هذا هو التعليم المقدّم لنا في نصّ سفر يونان، بالحريّ يريد أن يجعل من يونان أداة لهذا "**الحبّ الرحيم**".

٤- مزمور خارج الإطار

في الواقع، لا تواجهنا صعوبة لاكتشاف عدم انسجام نصّ يون ٢/٣-١٠، والذي يطلق عليه مزمور يونان أو صلاة يونان من جوف الحوت، مع باقي السفر. يمكن استدلال ذلك في النقاط التالية:

- إنّه صيغة شعريّة في إطار كتاب قصصيّ. في الوقت نفسه، يمكن للمؤلف استخدام أكثر من أسلوب أدبيّ في نصّ واحد.
- الكلمات المتكرّرة طوال السفر مثل كلمة "عظيم" لا ترد في نصّ المزمور.
- هو مزمور شكر في لحظة خطر عظيم، قبل أن يعرف كيف تسير الأمور، وإلى أين، وتنتهي هذه المغامرة في بطن الحوت، يبدو أنّه من الأفضل وضعه بعد الآية الحادية عشرة.
- ليس الكتاب كله ليونان ، بل هناك عناصر متناقضة. خارج المزمور يونان لا يصلّي، وإذا صلّى لكي يعترض على **الله**، بينما هنا في المزمور يتّجه إلى **الله** بأسلوب وتعبيرات رائعة مفاجئة "ربّي، إلهي"[٢٨].

- كتاب يونان لا يتحدّث مطلقًا عن الهيكل، والذبائح، وأورشليم، والمجمع. بينما هنا العكس صحيح[٢٩].

- كاتب يونان يطلب الموت في لحظات اليأس، بينما هنا سعيد بالهرب من الموت.

أخيرًا، لماذا وضع هذا المزمور في السفر؟ يبدو ذات مغزى، والاقتراح الذي يؤكّد على أنّه تمّ دمج المزمور لإعطاء شرعية لسفر يونان، حتّى يكون مقبولًا لدى

---

٢٨ - يون ٢/٧.
٢٩ - يون ٢/٥ب.

القيادة الدينيّة في أورشليم." ليس كتاب يونان صان المزمور، إنّما المزمور هو الذي صان كتاب يونان من التحريف وعدم القانونيّة"[30].

٥- استخدام التعبير المرح أو الساخر لتوصيل الرسالة

من الأشياء المؤثّرة جدا عند قراءة سفر يونان المفارقات الساخرة، لقد استخدم الكاتب المُوحى هذا الأسلوب حتّى تصل رسالته إلى القلوب مباشرة. نُوجز ذلك في الآتي.

يُنسب السفر إلى يونان النبيّ. على الرغم من المعلومات المحدودة عنه، وحسب الزمن الذي عاصره، لا نواجه صعوبة في وصفه كنبيّ قوميّ، خاص بإسرائيل. ومع ذلك، اختاره الله من أجل رسالة عالميّة، تتخطّى القوميّة.

لا يتحدّث النصّ عن يونان كنبيّ، ولا عن أورشليم ولاعن الهيكل، بينما يمتلئ النصّ بالحديث عن البحّارة الوثنيّين، ونينوى المدينة الوثنيّة، والملك، حيثُ يقدّمهم بصورة إيجابيّة.

الوثنيّون مستعدّون لقبول رسالة الله، بينما يونان العبرانيّ يهرب أو يقبل على مضض الرسالة.

يعترف يونان بـ" يهوه " كإلهه، هو ربّ السماء والأرض، في الوقت نفسه، هذا لا يمنع أن يبني حياته بجانب الله، وليس في انسجام معه.

في البحر، أثناء الزوبعة، الجميع مشغولون ومنهمكون من أجل إنقاذ السفينة، عدا يونان النائم في قاع السفينة. أمام الحدث الأسوأ، يصلّي الوثنيّون، بينما لا يصلّي يونان.

بعد أن وعظ يونان وأعلن رسالة الله لأهل نينوى، أخذ يونان مظلّة ليرى ما يصيب المدينة من عقاب الله، بينما يحضّر الله مشهد رحمته العظيمة.

ييأس يونان أمام مشهد موت اليقطينة. في الوقت نفسه، لا يهتمّ، مطلقًا،

---

30. V.MORA,*Jonas* ,Cahiers Évangile 36 , Les Éditions du Cerf, Paris 1981, 45.

أمام موت المدينة كلّها. بالعكس، ينزعج جدًا أمام رحمة الله وقراره بخلاص المدينة من الهلاك.

يعترف يونان أنّ الله رحيم رؤوف، إلاّ أنّه في الوقت نفسه، يودّ لو أنّه هو الذي يحدّد الأزمنة، والأماكن، والأسلوب لتحقيق هذه الرحمة.

كلّ واحد منّا يمكن أن يجد تناقضات أخرى، التي تجعل قراءة السفر شيّقة له، في الوقت نفسه،هذا يثير فينا الضحك، بسبب صغرنا وتفاهتنا، بسبب تمسّكنا لنظرتنا عن الله، وعدم رغبتنا في تغيّر أفكارنا عن الله، فنتساءل أمام إجابتنا عن دعوته لنا.

"مناجاة"

يا ربّ، كلّ يوم،

نتقابل مع يونان، داخلنا.

نجده جادًا، مشغولاً، مهتمًا، مثيرًا.

العالم بين يديه.

أحيانًا، بدون وعي،

يؤمن أنّه، يعمّدك، أنت.

شكرًا، يا ربّ، على كلمتك،

التي تخاطر، في صراع دامٍ، مع كلماتنا،

حتّى تجعلها ذا قيمة، وتجدّدها بغنى جديد.

حتّى أنّ ما تقوله لنا، فيما بيننا،

يمكنه أن يروي جفاف كلماتنا.

يا ربّ، لا تسمح لتاريخنا الصغير أن يكون فاقد الإحساس،

أو مغلقا أمام التاريخ الذي تريد أن تسطره أنت، في تاريخنا، وعبر تاريخنا.

نعم، تاريخ البشرية، هو أيضًا تاريخ إلهيّ،

هذا، إذا تركناك أن تسطره في يومنا الحالي. آمين.

الفصل الثاني

الرسالة من واقع الحياة

(يون ١/١-٢)

"مناجاة"

مرّة أخرى يا ربّ ، نأتي إليك.

باحثين عن كلمتك المُحيية،

بالرغم من معرفتنا، بأنّها تقطع لحمنا الحيّ، وتؤلمنا.

إلاّ إنّنا واثقون، يا ربّ،

أنّ رغبتك الحقيقيّة هي شفاؤنا.

تريد تطهيرنا، تحريرنا من تراكمات الزمن،

وتعطي زماننا الحاضر بهاء وألوان الأزمنة الأولى.

أيقظ آذاننا، افتح قلوبنا دائمًا.

فلتأتِ وتخترق كلمتك حاضرنا الحيّ.

ولتصبح كلمتك معنى حياتنا.

آمين.

النص ١/١-٢

كانت كلمةُ الرّبّ إلى يونانَ بن أمتّاي: " قُم اذهب إلى نينوى، (عاصمة الأشوريّين، رج ٢مل١٩/٣٦، نح١/١)، المدينة العظيمة، ونادِ بأنّ أخبار شُرورها صعدت إليّ ".

يظهر في هاتين الآيتين، مباشرة، الأشخاص الثلاثة الأساسيّة في السفر: الله- يونان- نينوى.

كانت كلمة الرب

عبارة رائعة الجمال، حيث يتّضح منذ البداية، بصورة مباشرة، أنّه كانت هناك "كلمة الله". حرفيًا يمكن ترجمتها " جاء الوقت التي أصبحت كلمة الله حاضرة ليونان"، أو العكس: "جاء الوقت الذي أصبح يونان حاضرًا لكلمة الله الحاضرة أبدا".

هذا الأسلوب، يذكّرنا دائمًا، أنّ المبادرة دائمًا نابعة من الله، الله يبحث عن الإنسان للدخول معه في علاقة (تك ٣/٩).

في الوقت نفسه، يضع في الاعتبار حقيقتين أساسيّتين: الله والإنسان، متباينتين تماما على المستوى الكيانيّ، في تواصل دائمًا عبر الكلمة.

نلاحظ، أيضًا، الأسلوب التقليديّ المعتاد والمستخدم في افتتاحيّة سفر من أسفار الكتاب المقدّس، للإشارة إلى دعوة الله إلى أحد الأنبياء، خاصّة عندما يدعوه إلى رسالة خاصّة (إر ١/١١،٤؛ حز ١/٣؛ هو١/١؛ يوَ ١/١؛ مي ١/١؛ صف١/١؛ زك١/١ ؛ مل١/١)[٣١].

إلي يونان

لم يرد ذكر لقب يونان كنبيّ هنا ولا فيما بعد. فقط يذكر مرّة واحدة في

٣١. تكررت هذة العبارة ٦٦ مرّة في العهد القديم.

٢مل١٤/٢٥: "وهو الذي استردّ لإسرائيل الأرض التي خسرتها من لبو حماة في الشمال إلى البحر الميت جنوبا، كما قال الربّ على لسان عبده يونان بن أمتّاي النبيّ الذي من جتّ حافر"، حيث كان معاصرًا لحكم يربعام الثاني ملك إسرائيل (٧٨٣ -٧٤٣ ق.م). يمكننا أن نطرح التساؤل: لماذا الربط بين هذا النصّ ويونان النبيّ؟

أوّلا: حسب نصّ ٢مل، تنبأ يونان، أنّه بالرغم من خطايا إسرائيل، سوف تحافظ على حدودها،بذلك يحمل أنباء إيجابيّة لبني إسرائيل. في الوقت نفسه، يبشّر بهزيمة الأشوريّين العدوّ اللدود لشعب إسرائيل في ذلك الوقت. فالخلاص، إذا لإسرائيل، والهلاك للأشوريّين . هذا ممّا يضع يونان النبيّ في مكانه عالية لدى الشعب الإسرائيليّ.

ثانيًا: هكذا يتممّ يونان قائمة أنبياء الشمال والذين يؤكّدون،جميعهم، أنّ كلمة الله تتمّ بلا رجعة، بقوّة وعزم: أخيا الشّيلوني النبيّ[٣٢]؛ ياهو بن حناني النبيّ[٣٣]؛ وإيليا وأليشع[٣٤] ؛ وبعض الأنبياء غير معروفين[٣٥] ، وميخا[٣٦]. هكذا أيضًا، يونان كنبيّ تتمّ من خلاله كلمة الله: ينبئ نبوءة الخراب والهلاك لمدينة نينوى.

الاسم العبرانيّ " يونان " أي حمامة، بمراجعة المرّات المذكور فيه هذا الاسم في الكتاب المقدّس، يمكننا القول: " الحمامة هي طائر كتابيّ ذو مقام رفيع"[٣٧]، يتحدّث عن سرعتها[٣٨]. ويصف حزقيال المريض بأنّه يئن مثل حمامة: "أزقزق كالسنونة وأهدل كالحمامة، ومن النظر إلى العلاء تعبت عيناي"[٣٩] . أيضًا الحمامة تعشّش على أطراف الهوّة السحيقة[٤٠]. إنّها طائر مختار في نشيد الأنشاد حيث دُعيت المحبوبة بهذا الاسم[٤١].

أمّا في سفر التكوين، فالحمامة هي رسول السلام، تحمل إلى نوح غصن الزيتون، في نهاية زمن الطوفان[٤٢]. في العهد الجديد، الحمامة رمز للروح القدس[٤٣].

---

٣٢. ١مل١١/٢٩-٣٩؛١٤/١-٨.
٣٣. ١مل١٦/٧-١٢.
٣٤. ١مل١٧-٢مل١٣.
٣٥. ١مل ١٣/٢٢،٢٨.
٣٦. ١مل ٢٢/١٣-٢٨.
٣٧. راجع موسوعة الكتاب المقدس و العلم الكتابي، ماسسيمو، ميلانو ١٩٨٦، ١٧١
٣٨. أش ٦٠/٨؛ هو ١١/١١.
٣٩. أش ٣٨/١٤.
٤٠. إر ٤٨/٢٨.
٤١. نش ٢/ ١٤؛٥/٢؛٦/٩.
٤٢. تك ٨/١١.
٤٣. مت٣/١٦؛مر١/١٠؛لو٣/٢٢؛ يو ١/٣٢.

أمام ما ذكرناه، يمكننا القول إنّ الحمامة طائر قد يلعب دور الوسيط بين البشر والله، ويحمل في ذاته علامة تدلّ على الرقّة، والإيجابيّة، والبساطة: " كونوا حكماء كالحيّات بسطاء كالحمام"[٤٤]. بينما يحمل، في العهد القديم، معنًى آخر، على سبيل المثال نصّ هوشع النبيّ، يقدّم لنا الحمامة مثالاً للشخص الذي يتّكل على القدرات الأجنبيّة، ولا يثق في الله: " صار بيت أفرايم كحمامة طائشة لا لُبّ لهُم. يومًا يستنجدون بمصر، ويومًا يتّجهون صوب أشّور"[٤٥]. من المحتمل، تطبيق كلّ هذه الرموز الخاصّة بالحمامة على صورة يونان وتؤثّر عليه، فيونان حامل صوت الله والأمين، في تحد مع إيمانه.

بن أمتّاي

يذكر لنا نصّ ٢مل ١٤/ ٢٥ أصل عائلة يونان النبيّ، من مدينة "جَتّ حافِرَ"، في أرض زابلون[٤٦]، القريبة من الناصرة.

يذكر الاسم " أمتّاي " فقط في هذه الآية، ويعني " الأمين " أحد أسماء الله. هذا الاسم، الذي يشير إلى الله، قد سبب قلقًا وإزعاجا بالغًا ليونان النبيّ، والذي يذكّره دائمًا بعلاقته المتوتّرة مع الله، لذلك فضّل عدم تكرار الاسم مرّة أخرى!

يقدّم لنا، فقط، التقليد الرابينيّ اسم الأمّ، هي أرملة صرفة صيدا والتي، حسب الكتاب المقدّس، استقبلت إيليا النبيّ في دارها[٤٧]، وهي أيضًا حسب التقليد تنتمي إلى قبيلة أشير المهتمّ بالملوك والأنبياء[٤٨].

٢. قم، اذهب

هذا التعبير لا يحمل في طيّاته دعوة اختياريّة أو تفضيليّة، ولا نصيحة تحتمل الرفض، إنّه أمر، لا يترك مساحة للهروب أو التقاعس، أمر يتطلّب اتّباعا ولا يقبل التلاعب.

---

٤٤. متى١٠/١٦.
٤٥. هو٧/٨-١١.
٤٦. يش ١٩/١٣.
٤٧. ١مل ١٧/٩-١٠.
٤٨. تك ٤٩/٢٠.

قم، اذهب: فعلان يحملان طابع الحركة، وعدم السكون؛ يتطلّبان تغييرًا، يسبّبان ألمًا. لقد استخدمهما العهد الجديد، بصورة مألوفة ومتكرّرة، على لسان يسوع في دعوته لتلاميذه. يسوع يستخدم الفعل العبرانيّ " قم "، واهبًا ابنة يايرس الحياة مجدّدًا، قائلاً: " طليثا قومي " بمعنى: " أيّتها الصبية قومي "[٤٩]. ممّا سبق، يمكننا أن نفهم دعوة الله ليونان، كدعوة "إيقاظ " الحياة داخله، أي أن يأخذ حياته بيده.

إلي نينوى

دُعَي يونان للانطلاق إلى نينوى، إحدى المدن الأكثر قدمًا. أول آثار إنسانيّة بها تعود إلى ستة آلاف سنه قبل المسيح. بها هيكل يرجع إلى عام ٢٤٠٠ ق.م. أصبحت عاصمة الأشّوريّين تحت حكم سنحريب (٧٠٤-٦٨١ ق.م.). تحطّمت كاملة في عام ٦١٢ق.م. على يد قيصر، حليف نبوخذ نصّر ملك بابل.

ورد أوّل حديث عنها في الكتاب المقدّس في سفر التكوين، ضمن المدن الكبرى الأخرى: " من تلك الأرض خرج إلى أشّور وبني نينوى ورحوبوت عير وكالح، ورسن التي بين نينوى وكالح، وهي المدينة العظيمة " (تك ١٠/١١-١٢). لم تقارن نينوى، عبر التاريخ، بالمدن الأخرى بسبب وحشيّتها وفظاظة حملاتها العسكريّة، وأسرها لشعوب بأكملها، وأساليبها الجبّارة في التعذيب[٥٠].

أيّ إنسان عبرانيّ، لا ينسى مطلقًا أنّها السبب في سقوط مملكة الشمال عام ٧٢٢ق.م. يكفي أن نتذكّر الذمّ الذي وجّهه ناحوم النبيّ إليها، حتّى نتخيّل كيف يراها أيّ عبرانيّ:

" ويل لمدينة الدماء! يملأها الغدر والرعب ولا يجول فيها طرف. ها صوت السياط، وجلجلة العجلات، ووقع حوافر الخيل، وخضخضة المركبات. ها هو ثوب الفارس، ولمعان السيف، وبريق الرمح، وكثرة القتلى، وتراكم الجثث التي بها يعثرون. ذلك كلّه لكثرة زنى الزانية، تلك الفاتنة الجمال وصاحبة السحر.

---

٤٩. مر ٥/١٤

50. Wolff, *Studi sul libro di Giona*, 115

تخدع الأمم بزناها والعشائر بسحرها. ها أنا خصمك، يقول الربّ القدير، فأكشف حجابك عن وجهك وأفضحك وأري الأمم والممالك عورتك. أقذفك بأرجاس، وأطرحك، وأشمت بك كلّ من يراك. فكلّ من يراك يأنف منك ويقول: خربت نينوى، فمن يرثي لها؟ ومن أين أطلب لها مُعزّين؟"[٥١]. تعبّر النغمة نفسها، في كلمات صفنيا النبيّ: " ويمدّ الرب يده على الشمال ويبيد أشور. يجعل نينوى مُقفرةً قاحلة كالصحراء. تربض في وسطها القطعان وكلّ وحوش البرّ، ويبيت على تيجان أعمدة خرائبها الغراب والقنفد، وتقيّل في نوافذها البومة وعلى عتباتها الحرباء، لأنّ خشب الأرز عُري عنها. تلك هي المدينة المرحة المطمئنة القائلة في قلبها: " أنا ولا أحد غيري " صارت مُقفرة ومربضًا للوحوش، كلُّ من يمرّ بها يُصفر ويهزّ قبضته احتقارًا"[٥٢].

ربّما لكاتب الوحي الإلهيّ، لا يعنيه كثيرًا نينوى التاريخيّة، فلم تعد بعد أثناء كتابة السفر عاصمة للأشوريّين، والتي تمّ هدمها. ما يهمّ كاتب الوحي، أن يجعل من نينوى رمزًا للخطيئة والعنف، أكثر من الإلحاح على عظمتها. إنّها رمز ونموذج للمدينة الوثنيّة، التي تحيا بدون الله، مركز قوّة الإنسان القاهرة والظالمة.

إلى هذه المدينة "نينوى" دُعي يونان للذهاب إليها. لا يوجد مصير أسوأ من ذلك لهذا الإنسان: إنسان مُرسل للنبوّة إلى هذه المدينة الوثنيّة، وأكثر من ذلك، فهي تعتبر ألد أعداء إسرائيل!

في الواقع، أرسل الله أنبياءه إلى الشعب الإسرائيليّ ليعلن لهم خطيئتهم ويدعونه إلى التوبة. لم يسبق إرسال نبيّ، خارج حدود إسرائيل، تجاه الوثنيّين. نعم، أرسل إيليا من الله تجاه " الشرق " ووصل إلى صرفة صيدا، في بلاد الفينيقيّين جنوب سدوم، في الحدود الوثنيّة. إنّما حدث ذلك ليهرب من القحط[٥٣]. دُعي أيضًا للذهاب إلى دمشق[٥٤]، لأجل رسالة سياسيّة أكثر منها دينيّة: ليمسح حزائيل ملكا عليها، تحقّقت هذه الرسالة على يد تلميذه أليشع[٥٥]. أيضًا دعوة

٥١. نا ٣/١–٧؛ رج أش ١٠/٥–١١.
٥٢. صف ٢/١٣–١٥.
٥٣. ١مل ١٧/٢-٩.
٥٤. ١مل ١٩/١٥.
٥٥. ٢مل ٨/٧-١٥.

إرميا النبيّ، كان من المفروض أن يكون " نبيًّا للأمم ": " وقبل أن أُصوّرك في البطن اخترتك، وقبل أن تخرج من الرحم كرّستك وجعلتك نبيًّا للأمم ، وأعطيتك اليوم سلطة على الأمم وعلى الممالك لتقلع وتهدم وتهلك، ولتنقض وتبني وتغرس"[٥٦]. إلاّ أنّه، في الواقع، لم يخرج مطلقًا من أرضه ليذهب ويبشّر الأمم. كذلك، يتحدّث إشعيا النبيّ كثيرًا عن " العبد" الذي له دور تجاه " الأمم"[٥٧]. ويظلّ صعبًا وغامضًا القول كيف تمّت هذه الرسالة نحوها. تخاطب إسرائيل الأمم الوثنيّة فقط لإعلان عقاب الله لهم، أو على الأقلّ لأجل اندماجهم مع الشعب الإسرائيليّ. في الواقع، إله إسرائيل إله قوميّ، لأجل إسرائيل فقط. وإذا خاطب الأنبياء الوثنيّين فإنّهم يخاطبونهم من داخل إسرائيل. والآن، نجد يونان مرسلاً من إلهه خارج أرضه، من إله إسرائيل إلى خارج إسرائيل!

المدينة العظمى

أظهرت دراسات علم الآثار، بدقّة، أن المسافة من أشّور و نرجال (نينوى)، تبلغ حوالي خمسة كيلومترات. لا غرابة في هذا، إنّما مقارنة بالمدن الفلسطينية تعتبر أكبر كثيرًا.

ممّا يجدر الإشارة إليه – أن الصفة "العظمى" تتكرّر أربع عشرة مرّة لمدينة نينوى في الإصحاحات الأربعة.

في هذه المدينة يتمّ الإعلان

يمكننا قراءة النصّ بالمعنى العبريّ: " اصرخ ضدّ هذه المدينة". آخذين في الاعتبار مضمون الرسالة المعلنة، والتي لا تتّفق مع ما يتمنّاه شعب نينوى، بل يصل إلى ما هو أسوأ.

شرورها صعدت إليّ

لقد وصلت شرور أهل نينوى إلى القمّة. يذكّرنا هذا النصّ في العهد القديم

---

٥٦. إر ١/٥-١٠.
٥٧. أش ٤٢/٦؛٤٩/٦.

بمشهدين مألوفين: الطوفان، وسادوم وعمورة. أمام مشهد الطوفان: " ورأى الربّ أنّ مساوئ الناس كثرت على الأرض، وأنّهم يتصوّرون الشرّ في قلوبهم ويتهيّأون له نهارًا وليلاً"[٥٨]. يقدّم لنا كتاب التكوين العقاب المهيّأ لشعب سادوم وعمورة، فيعبّر عنه قائلاً: "كثرت الشكوى على أهل سدوم وعمورة وعظمت خطيئتهم جدًّا. أنزل وأرى هل فعلوا ما يستوجب الشكوى التي بلغت إليّ ؟ أريد أن أعلم"[٥٩]. كيف لا نتذكّر أيضًا نصّ (خر٣/٩): " والآن ها صراخ بني إسرائيل وصل إليّ ورأيت كيف يجور المصريّون عليهم"، أو نصّ (١صم ٩/١٦) " غدًا، في مثل هذه الساعة، أرسل إليك رجلاً من أرض بنيامين، فامسحه رئيسًا على شعبي إسرائيل، فيخلّص شعبي من أيدي الفلسطينيّين، لأنّي نظرت إلى آلام شعبي وسمعت صراخهم". من هذه النصوص، يتجلّى لنا بوضوح أنّ إله إسرائيل، إلهٌ حسّاس، يتأثّر، منتبه لآلام شعبه، يستاء أمام شرور الإنسان.

٥٨. تك٦/٥.
٥٩. تك١٨/٢٠-٢١.

التــــأمــــل

١- الرسالة ليست ترفا

النصّ الذي تأمّلناه آنفًا، يقدّم لنا دعوة الله إلى يونان النبيّ، نحو الرسالة كفعل تكليف لا مفرّ منه. وكيف لا نتذكّر نصّ القدّيس بولس: "نحن أسرى محبّة المسيح"[٦٠]، بمعنى أن محبّة المسيح تدفعنا.

الرسالة: في الواقع، لا تحمل الرسالة في طيّاتها أيّ إمكانيّة للرفض: "فإذا بشّرتُ، فلا فخرَ لي، لأنَّ التبشير ضَرورةٌ فُرضت عليَّ، والويل لي إن لم أبشِّرُ..."[٦١]. كلّ مسيحيّ "**كيان للمسيح**" بمقدار ما يحيا "**مرسل المسيح**". فلا يمكن التخطيط لحياة مسيحيّة بمعزل عن المسيح: "مع المسيح صُلبتُ، فما أحيا بعدُ، بل المسيح **يحيا** فيَّ. وإذا كُنت أحيا الآن في الجسد. فحياتي هي في الإيمان بابن **الله** ..."[٦٢]. إذ نظلّ تلاميذه بمقدار ما نحيا في مسيرة خروج دائم عن ذواتنا باتّجاه الآخرين. ويعلّق على ذلك الكاردينال بللسترّو: "بمقدار ما نتأمّل ذواتنا "**ككيان كنيسة**"، نكتشف ذواتنا "**كنيسة مرسلة**"، فلم توجد الكنيسة، في العالم، من أجل ذاتها، بل تحيا لأجل الآخرين، لمجد **الله**، وخلاص العالم"؛ "فنحنُ لا نُبشِّرُ بأنفسنا، بل بيسوع المسيح ربًّا، ونحن خدمٌ لكم من أجل المسيح"[٦٣].

مكان الرسالة: البيئة التي نرسل إليها، وكيفيّة تحقيق الرسالة: أي الطريقة والأسلوب العمليّ لممارسة هذه الرسالة، يأتيان في المقام الثاني. في الواقع، يأتي في المقام الأوّل التجاوب واتّباع الدعوة إلى الرسالة، مدركين أنّ حياتنا كمسحيّين في العالم تتّفق ووضعنا كمرسلين (أنتم نور العالم، أنتم ملح الأرض، الخميرة).

المسيحيّ هو خليقة جديدة في المسيح، أي كيان في "**حالة النعمة**"، خليقة تتطابق وتتّفق وترافق كيانا في "**حالة إرسال مستمرّ**". دعوة المسيحيّ

٦٠. ٢كو٥/١٤.
٦١. ١كو٩/١٦-١٨.
٦٢. غل٢/٢٠؛٣/٢٧؛في٢/٧؛ قل٢/٣.
٦٣. ٢كو٤/٥.

الأساسيّة هي التشكّل المستمرّ بالمسيح، هذا يعني أن نأخذ شاكلته، أن نتزاوج مع كيانه، ونمط وجوده: المسيح هو " مرسل الآب " إلى العالم ولأجل العالم.

٢- الرسالة هي فعل نهوض دائم

إلهنا ليس إله الراحة، والسهولة والسطحيّة. إلهنا دائمًا يقلب الخطط، يوسّع الأفق، ينهج سلوكًا جديدًا. إلهنا منذ الأزل وإلى الأبد لا يعرف الجمود ولا الراحة أو الهدوء أو الاستقرار. هكذا اختبر الذين اقتربوا منه، من إبراهيم أبي الآباء، والذين جاءوا بعده، حتّى أصغرنا اليوم.

أيضا، اليوم، يختبر كلّ منا هذين الفعلين المتلازمين في علاقتنا بالله، أو بالأحرى، يدفعاننا إلى ما هو أبعد " قم واذهب ".

ممّا لا شكّ فيك، عندما نجلس نبحث عن الوضع المريح! كذلك في مُعترك الحياة، نتمنّى، أحيانًا، لو كنّا في موضع المشاهدين، دون أيّ مشاركة، في وضع الجلوس، حيث تمرّ أمامنا كفيلم، أو كنهر ينساب بين أيدينا وتحت نظرنا.

إنّ عمليّة النهوض أو فعل القيام هو دائمًا " فرصة جديدة لنا ". يقدّم لنا الإمكانيّة الدائمة.فأن نأخذ حياتنا بين أيدينا، هو فرصة لتجديد حياتنا، يوميًا، ولا نتركها تسقط من بين أيدينا.

النهوض دعوة للتخلّص من العثرات، التي بطريقة أو أخرى يومًا ما، سوف نسقط فيها جميعا. هذه العثرات تصيبنا جميعا، من الأكبر إلى الأصغر، الذي في القمة كذلك الذي في القاع. جميعنا نحمل في ذواتنا إمكانيّة الجلوس أو النوم. هكذا يوبّخ سفر الرؤيا، دون شفقة، القائم على كنيسة أفسس قائلاً: "فاذكر من أين سقطت وتُبْ وعُدْ إلى أعمالك الماضية، فإنْ كُنتَ لا تتوبُ جئتُكَ وأخذتُ منارتك من مكانها"[٦٤]. أيضًا القائم على كنيسة سارديس: "فاذكرْ ما تعلّمتهُ وكيف قبلتهُ، واعملْ به وتُبْ. فإنْ كُنتَ لا تسهرُ جئتُك كاللّص، لا تعرفُ في أيّة ساعة أباغتُكَ"[٦٥].

---

٦٤. رؤ ٢/٥.
٦٥. رؤ ٣/٣.

النهوض، أيضا، هو أخذ مسافة من الأوضاع المختلفة التي تُقيّد حياتنا، تجعلنا مأسورين، عبيدا لها. إنّها العادات والتقاليد التي تسرّبت إلى حياتنا في هدوء شديد، امتزجت بها، شكّلتنا، واشترتنا، أحببناها وأحبّتنا. يَسرُّ الربّ أن ينزع هذه العادات عن الأشخاص الذين يحبّهم، أيّة كان درجة التصاقهم بها. وعادةً، ما يستخدم أسلوبه الإلهيّ في نزعها، والذي غالبًا لا يرضي المنطق البشريّ، إلا أنّها في النهاية، تفتح وتطهّر القلب البشريّ.

لقد تعوّدنا، للأسف، على الكلّ: الأخ، والأخت، والجماعة، والدعوة التي دعينا إليها، على الرسالة التي نتوقّعها (هنا نصلّي القدّاس وهناك أيضًا... لا جديد). لقد تعوّدنا أيضا على الله ذاته، إلى هذا الحدّ، أصبح الله غير مؤثّر، في هذا الإطار يذكّرنا أحد الكتّاب قائلاً: " لقد تعوّدنا على كلّ شيء، أصبحنا- نحن المسيحيّين- قادرين أن نقف تحت صليب المسيح مرتاحين "[٦٦]. أيضا دوستويفسكي: " الإنسان كائن يعتاد كلّ شيء، أعتقد أنّ هذا أفضل تعريف للإنسان"[٦٧]. لم يعد هناك شخص، ولا يوجد من يستطيع أن يكلّمنا، أن يحرّكنا، أن يجعلنا نحيا الحياة في عظمتها.

كتب (Bernanos) في هذا السياق قائلا: هل يجدر بي أن أحيا هكذا، بأقلّ قدر من الجهد المبذول؟ هل يمكن أن تسير السيّارة، دائما، بالسرعة الأولى ؟. " هل نستطيع، نحن أيضًا، أن نعيش ومحرّك حياتنا يسير بأقلّ سرعة ممكنة[٦٨]: وخاصّة عندما نتجاوب "بتقطير" تجاه دعوة الله لنا (الإنسان الشحيح).

٣- الرسالة دائما انطلاق

لا رسالة دون ألم، ليس عند الوصول فقط، إنّما أيضًا منذ لحظة الانطلاق. الفعل " يرحل "، " يذهب " يلازم دائماً الفعل " يترك، يتخلّى ". هناك، دائمًا، شيء نتركه. هناك، دائماً، شخص نتخلّى عنه، على الأقلّ جسديّا. لا يمكن أن نرحل ونأخذ معنا الكلّ، أو نستطيع أن نعوّض ونبني في المكان الحاضر الماضي،

---

66. Gianfranco RAVASI, *Il silenzio di Dio. Riflessioni sul libro di Geremia*, Paoline, Milano 1988,68.
67. F.M. Dostoveskij, *Memorie da una casa di morti*, Giunti, Firenze 1994,12.
68. Susanna TAMARO, *Anima mundi*, Baladini & Castoldi, Milano 1997,74.

كأنّنا لم نرحل بعد، وكأنّ شيئًا لم يحدث من فعل الرحيل هذا. الجميع يتّفقون وهذا المنطق:

" الرسالة التخلّي ". إلا أنّه عندما نختبر ذلك شخصيًا، عندما نرى إصبع الربّ مشيرًا إلينا، كثيرًا ما نرغب أن نتحاشى هذا الانسلاخ أو الانقلاع. نحاول على قدر الإمكان أن نملأ الفراغات التي تضيّق المسافات، إنّه قلبنا الذي يتألّم، ونقدّمه ذبيحة رسالة. ومن العدل أن يكون هكذا، لأنّ الربّ لا يحتاج إلى حجارة، مستديرة صمّاء، تنتقل من مكان إلى آخر، إنّما إلى قلوب تحبّ دائما ومهما يكن، تعرف ثمن الحبّ، وتقبل بفرح مخاطرة الاتّباع والترحال.

الإرسال أو الانطلاق هو أن أضع ذاتي في وضع حركيّ، هو قبول التنقّل أو الترحال، بالقدمين والقلب والعينين والرأس والعقل جميعاً.

الانطلاق هو أن أقبل ألاّ أكون كما كنت سابقًا، أن أصبح أكثر استعدادا وأهليّة للخروج إلى المغامرة المسيحيّة، كخلقية جديدة، أتشكّل، ويعاد تشكيلي من الأشخاص الذين ألتقي بهم، في أيّ مكان أذهب إليه، ومن كلّ خبرة أحياها. في الواقع، اللقاء المتكرّر مع الآخر، المختلف، يبذر فينا بذورًا متبادلة، تحمل في النهاية ثمارًا لكلّ منّا[٦٩].

إعادة قراءة أو تقييم انطلاقاتنا، كثير من التنقّلات والتحرّكات التي تمّت في مسيرة حياتنا، يعني، اليوم أيضًا، قبول قراءة جديدة لحياتنا، تصبح خبرة عميقة تُشكّل حياتنا وتعطيها سمةً خاصّة. بالطبع، أيضًا في الوقت نفسه، هي أداة جيّدة لتطهير دوافع الدعوة الإرسالية. كما تقول الترنيمة: " الترحال، التجوال، ليس كلّ شيء، بالتأكيد هناك من يرحل ولا يعطي شيئًا، يبحث فقط عن الحرية "[٧٠]. في الواقع، الذهاب/ الترحال لا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن يصبح هروبًا، سواء من الذّات أو من الآخرين أو من الله. الانطلاق أو الترحال، بالنسبة للمسيحيّ هو ترحال/ خروج باسم الله وبصحبة الله.

69. J. MARRONCLE, « *Hommes et Femmes dans la vie consacrée*», in *Christus* (novemebre 1995), 162.
70. In *Nella casa del Padre*, LDC, Leumann 1995,429.

٤- الرسالة انطلاقة إلى الأبعد

إذا نظرنا جيدًا إلى الأماكن الإرساليّة (أين؟) التي تزيّن إطار دعوتنا، فإنّه من السهل لنا أن نتوسّع في عمل نموذج أكثر دقّة، وإن كان غير مكتمل.

هناك أماكن (أين؟) معروفة ومحبوبة لنا، نكون مسرورين بالانطلاق نحوها كمرسلين، كما أنّ هناك أيضًا أعمالاً؛ أشياء نسعد أن نعملها. يظلّ التجاوب على هذه الدعوات عملا غير مُكلّف ولا يحمل أيّ تضحية، حتّى وإن ظلّت دائما دعوات! القلب يذهب بترحاب وحرّيّة، كذلك أقدامنا تنطلق فرحة راقصة دون أيّة مشاكل " الرِجل تدبّ مطرح ما تحبّ".

يلي ذلك مباشرة أماكن (أين؟) مجهولة غير محدّدة المعالم، لا نستطيع أن نتصوّرها أو نتخيّلها، وبالتالي أشخاص هذه الأماكن، إلى هذه اللحظة، ليس لهم أيّ ملمح أو شكل بالنسبة لنا. بالمقياس نفسه، نواجه أشياء؛ أعمالاً، لم يسبق أن تدرّبنا عليها سابقا، جديدة تمامًا، وبالتالي نفكّر أمامها كثيرًا، بحذر أنّنا لم نُعَدُّ لهذه الأمور أو الأعمال. هنا والآن، نحن مدعوون لتكرار مغامرة إبرام (إبراهيم) الذي " خرج وهو لا يعرف إلى أين يذهب"[٧١].

أخيرًا، كثيرًا ما نجد أنفسنا في وضع يونان النبيّ، أمام نينوى، الخاصّة بكلّ واحد منّا. فبالنسبة لكلّ واحد منّا، هناك نينوى التي تمثّل المكان الذي لا نرغبه، أو العمل الذي لا نتمنّاه، أو الأشخاص الذين لا نرغب في لقائهم. إنّه الذهاب إلى حيث لا يرغب القلب، إلى ما يخيفنا ويرعبنا، إلى أشخاص لا يفكّرون مثلنا، بطريقة تختلف عن تفكيرنا، إلى أشخاص نعتبرهم أعداءنا أو نطلق عليهم ذلك. نعرف جيّدا إلى " أين " نحن مرسلون، وإلى أيّ "شيء " نذهب لنلقاه. وهذا هو، بالحقّ، ما يخيفنا ويصعب قبوله جدًا. "مستعدّ أن أقبل، يا ربّ، أيّ شيء آخر، إلاّ هذا. " قد

٧١. عب١١/٨.

تكون هذه هي صلاتنا وتوسّلاتنا في هذه الحالة. " في عمق الأعماق المختبئة داخل قلبنا، هناك مكان ما (بعيد أو قريب) ، حيث نأمل بحرارة، أن لا يدعونا الله إلى خدمته في هذا المكان. أو ربّما عمل أو فعل خدمة معين (كبير أو صغير) نأمل، بكلّ قدرتنا، ألاّ ندعى إليه مطلقا، من الله، لإتمامه"[٧٢]. كثيرًا، ما نُدعى، خاصّة، لأبعد أو خارج مخطّطاتنا، هناك، حيث نكون خارج الوضع المعتاد أو المألوف. وما تعوّدنا عليه، حيث أقول: بلدي، رسالتي؛ جماعتي؛ خدمتي؛ اجتماعي؛ أصدقائي؛ أحبّائي؛ وأوضاعي السابقة المريحة. نحن مدعوون، دائمًا وبكلّ أمانة، إلى حيث لا يسهل أن نرى دعوة الله لنا. إلاّ أنّه، في تلك اللحظات، خاصّة، نُطهّر بقوة، أي تصير لحظة تطهير لكلّ ما تعوّدنا عليه. نعود، في هذه اللحظات، إلى الدوافع الأساسيّة لدعوتنا ورسالتنا:

هو الربّ الذي يدعونا،

هو الربّ الذي يرسل،

هو الربّ الذي يحدّد الأماكن،

هو الربّ الذي يختار الأشخاص، ويحدّد الأعمال والأدوار.

بالنسبة لنا، نحن الباحثين دائماً عن الفرح، يفضّل أن نختار الوضع بين إمكانيّتين. أوّلاً : " ماذا أعملُ، يا ربّ "[٧٣]. ثانيًا: " نحن عبيد بطّالون "[٧٤]. ففي هذا الوضع، فقط، نجد فرحنا. افرحوا في الربّ كلّ حين، أقول أيضًا افرحوا، ليس بالأشخاص، أو بالأماكن، أو بالأشياء، إنّما الفرح في الربّ الذي يدعوني " افرحي يا مريم ، الربّ معك "[٧٥]. هذا، لأنّنا واثقون، أنّ الربّ يريد لنا كلّ الخير، وأنّ تتميم إرادته يتّفق تمامًا مع التحقيق الأفضل لحياتنا: " عرِّفْني سُبُل الحياة، واملأني فرحًا بحُضُورك، فمنْ يمينك دَوامُ النِّعَم "[٧٦].

72. A. FACEY, *Giona profeta riluttante, Dio misericordioso*, EDB, Bologna 1997,9.

٧٣. أع٢٢/١٠.
٧٤. لو١٧/١٠.
٧٥. لو١/٢٨.
٧٦. مز١٦/١١.

٥- الرسالة هي التحدّث بلسان آخر

لم يُدعَ المرسل ليتحدّث بكلامه الشخصيّ، إنّما حيث يُرسل يتحدّث باسم مَن أرسله، ويرافق الشخص الذي وُضعَ بجانبه، وإنّ كان لم يختره. إنّ الكلمة الموضوعة على لساننا، هي في غاية الخطورة، من منظور متعدّد الاتّجاهات:

أوّلا: لا توجه الكلمة، فقط للسامعين المستقبلين للكلمة، بل للمتحدّث والحامل لها أيضا. ليس المُرسل ناقلا للكلمة، بل إنّها مُوجّهه إليه أوّلاً، المُرسل إنسان يتفاعل مع الكلمة التي تستقطبه " كلمة الربّ لا تعود فارغة...." .

ثانيًا: الكلمة تُثيرنا، وتحثّنا جميعًا، لا تتركنا في حالة هدوء أو سكون وثبات. إنّها تُعرّي، وتكشف شكوكنا وتقلّباتنا وعدم أمانتنا. الكلمة لها من الخطورة بحيث، كثيرا، ما نبشّر بما لم نستطع بعد أن نحياه أو نختبره، فيبدو لنا وكأنّنا "نبيع الكلام"... الإنجيل دائمًا يحكم علينا[77]... مُراؤون " يقولون ولا يفعلون"(متى ٢٣/٣).

الكلمة تحثّنا وتدعونا إلى التوبة، إلاّ أنّنا في الواقع، ربّما قد فقدنا الإحساس بالتوبة فلا نتوب. أمام هذا التناقض الذي يعصف بنا نحن المرسلين (كلمة الله التي تخاطبنا أوّلا، وفقرنا وضعف خبرتنا بها) بالذات، يأخذنا الاندهاش والإعجاب. فيتأثّر الآخرون بمجرّد سماع الكلمة المقدّمة لهم، والتي لم يختبروها بعد. كلّ إنسان مسيحيّ يخاطر بتعليم الإنجيل للآخرين، معرّض أن يختبر في ذاته هذا التضادّ مع الحقائق العظمى والمدهشة التي أكّدها بذاته سابقا.

كثيرًا، ما نختبر نحن أيضا، خبرة الصمت الجميل والسهل، ألاّ نقول شيئًا، ألاّ نُعبّر أو نُظهر شيئا " تكلّمت كثيرًا وندمت، أمّا عن الصمت فلم أندم ". بهذا الأسلوب السهل الرخيص، سوف نتّفق مع الجميع، لن نفقد أصدقاءنا، وضمان هدوء الحياة، بهذا سوف نكون محلّ ترحيب وتقدير من الجميع. لكن كيف

77. H.DE LUBACH, *Méditation sur L' Église*, Aubier, Paris 1953, 197.

تصمت الكلمة النابعة من شخص آخر، والتي لم تصدر منّا؟ " فإذا بشَّرتُ، فلا فخر لي، لأنَّ التَّبشير ضرورةٌ فُرضت عليَّ، والويلُ لي إنْ لم أُبشِّر "[٧٨].

لن نصبح رحّالة مرسلين، حاملي كلمة الله، بل متشرّدين، مُروّجين لكلماتنا نحن. يقول شفيتزر رسول مرضى البرص: " إذا لم تقل مطلقا كلاما يؤسف أحدا ما، فإنّك لن تستطيع أن تؤكّد أنّك قلت دائمًا الحقيقة"، " لا تتبصّر كثيرًا في من هو صديقك أو من هو عدوّك، انشغل فقط في أن تكون صديق الربّ "[٧٩]. في الواقع، سوف نُسأل، في أيّ مكان نوجد، وفي أيّ عمل نقوم به في حقل الرسالة، إذا مكثنا ثابتين، أمناء للكلمة المُعلنة من خلالنا، وليس أمناء لكلماتنا نحن " فليعتبرنا النّاس خُدّامًا للمسيح ووُكلاء أسرار الله. وكُلُّ ما يطلب من الوُكلاء أن يكون كُلُّ واحد منهُم أمينًا "[٨٠].

---

٧٨. ١كو٩/١٦.
٧٩. الاقتداء بالمسيح السفر٢، رقم ١ ص١٠٨.
٨٠. ١كو ٤/١-٢.

"مناجاة"

يا ربّ، لقد ذكّرتنا،

بالدعوة التي دعوتنا إليها،

بالدعوات العديدة الكثيرة،

التي زرعتها في حياتنا.

لقد دعوتنا إلى الرسالة،

بكلّ ما تحمله هذه الرسالة من أبعاد!

من حركة، تخلٍّ، وانفتاح.

يا ربّ لا تسمح، مطلقًا،

أن يهرب أو ينتهي زمن الرسالة من حياتنا.

لا تسمح،

أن لا يسكن روح الرسالة في حياتنا،

في كنائسنا " روحك القدّوس لا تنزعه منّا " (مز٥١/١٣ب).

هب لنا النظرة الثابتة والثاقبة،

حيث تدعونا لأن نذهب،

وأن يكون قلبنا مستعدًّا، دائمًا، لكي يتبعك،

حيث تريد، ومتى تريد،

آمين.

تساؤلات للتعمق

١– ما هي الدوافع التي تحرّكني في حياتي كمسيحيّ؟ ما هو المحرّك الأساسيّ الذي أستمدّ منه قوّة حياتي؟

٢– ما معنى" كيان مرسل " بالنسبة لي؟ في أيّ شيء يتأسّس كوني مرسلا من الربّ؟

٣– ما الذي أشعر به، إذا لم أخرج من ذاتي ؟ إذا لم أنفتح حياتيًا على الآخرين، إذا لم أترك ذاتي كمرسل إليهم؟ هل حياتي كمسيحيّ تصبح فارغة لا معنى لها؟

٤– إذا أجبت على دعوة الله لي مؤكّدًا بالإيجاب. هل أقبل الانطلاق والذهاب كليًا، كيانيًا (من حيث المكان والزمان)، أم أنّي مستعدّ لذلك جزئيًا في حياتي؟

٥– هل أقبل أن أُراجع حياتي (إعادة قراءة)، لتطهير انطلاقات عديدة تمّت في حياتي الماضية؟

٦– ما هي المجالات والأماكن التي ليس من حقّ الرب أن يدعوني إليها؟ هناك مجالات لا أرغب، أبدًا أن يدعوني الربّ للعمل بها؟

٧– ما هي الكلمات لا أرغب في أن ينطق بها فمي مطلقًا، خوفًا من أن أعيشها، خوفًا من أن أفقد أعزّاء عليّ، أو حتّى لا أخلق مشاكل مع الذين يصغون إليّ أو أعمل معهم؟

٨– في أي شيء من حياتي تتحقق هذه العبارة: "كلّ شيء ممكن ما عدا هذا!"؟

٩– ما مكانة كلمة الله في حياتي؟ في صلاتي؟

الفصل الثالث

الإجابة الهاربة

(يون ١/٣)

"مناجاة"

يا ربّ، ها يوم جديد، يحملنا إليك،

نأتي إليك بما نحن عليه، وما نمتلكه.

ونقول لك بصدق، إنّه ليس من سهل علينا دائمًا: أن نكون كما تريد.

نحاول، بين الحين والحين، أن نكون خلفك،

نحصد ساعات النصر، وساعات الهزيمة.

إلاّ أن هناك شيئًا واحدًا نودّ أن تتأكّد منه

وهو قرارنا، المتجدّد دائمًا،

بالإصغاء لكلمتك المحيية،

تاركين ذواتنا تتحوّل بتأثيرها و فعلها فينا.

أرسل روحك القدّوس،

لينير عقولنا،

ويهب قلوبنا الشجاعة.

فلا نفقد النظر والبصيرة،

ولا تتعثّر خطواتنا،

في متابعة مسيرتنا التي بدأناها.

أعنّا لنثبت في اتّباعك،

وفي رفقتك.

آمين.

" فقام يونان وذهب، لا إلى نينوى، بل إلى مدينة ترشيش (مستعمرة فينيقيّة تقع على الشاطئ الغربيّ الجنوبيّ لأسبانيا، في الجهة المقابلة لنينوى. دعي يونان إلى الشرق فذهب إلى الغرب) هربًا من وجه الربّ. فنزل إلى يافا (مرفأ أورشليم في ذلك الزمان)، فوجد سفينةً سائرةً إلى ترشيش، فدفع أجرتها ونزل فيها ليذهب مع ملاّحيها إلى هناك بعيدًا من وجه الربّ ".

نحن الآن أمام إجابة يونان على دعوة الله.

٣- إلاّ أنّ يونان

" إلاّ أنّ " تجعلنا ندرك مباشرة، أنّ سلوك يونان لا يتّفق مع ما ينتظره القارئ. في الواقع تعبّر " إلاّ أنّ " عن المسافة الكيانيّة، بين الله من جهة والإنسان من جهة أخرى.

- **قام، ليذهب هاربًا،** يستخدم النصّ الفعل " **قام** " نفسه في الآية الثانية. طلب الله من يونان القيام، في الواقع، قام ليس ليذهب مطيعًا، بل **هاربًا.**

كما تعوّدنا من النصوص الكتابيّة العديدة، هناك دعوة **منطقيّة** من جهة الربّ يقابلها إجابة **غير منطقيّة، أي هروب،** من جهة المدعو: أمام الكلمة التي تدعو حيث تتطلّب سلوكًا يتّفق والدعوة. إلا أنّه في الواقع، لم يرد مطلقًا، في الكتاب المقدّس، أنّ نبيًّا أجاب بعدم الطاعة (الهروب). ربّما نوجّه بعض الاعتراضات أو التساؤلات أمام دعوة الله، على مثال موسى النبيّ: " يا ربُّ! ما كُنت يومًا رجُلاً فصيحًا. لا بالأمس، ولا من يوم كلّمتني أنا عبدك، بل أنا بطئُ النُّطق وثقيلُ اللِّسان "[٨١]. هكذا إرميا يقول " آه، أيُّها السَّيدُ الرّبُ! أنا لا أعرفُ أنْ أتكلَّمَ لأنِّي صغيرٌ "[٨٢]. أيضًا جدعون، الذي طلب منه الربّ أن يخلّص إسرائيل من أيدي أهل مدين " ناشَدتُكَ ياسيِّدي. بماذا أُخلِّصُ بني إسرائيل فقبيلتي أضعَفُ قبيلة في بني منسَّي، وأنا الأصغرُ في بيت أبي "[٨٣].

---

٨١. خر ٤/١٠.
٨٢. إر ١/٦.
٨٣. قض ٦/١٥.

أقلّه هروب إيليا هو بعد أن أكمل الرسالة الموكلة إليه[٨٤] ، أو النبيّ أُوريًّا الذي انطلق إلى مصر، هاربًا من رغبة الملك يوياقيم في قتله[٨٥]. بينما هنا، ليس الأمر كذلك، فلا أيّ اعتراض أو استفسار، ليس هناك أيّ رفض مباشر، معبّر عنه بالكلام. بل صمت يغلّف ويرافق الهروب. فلم تكن كلمة الله ليونان نورًا لسبيله ولا مصباحا لخطواته: " كلامُكَ سراجٌ لخُطواتي، ونورٌ يا ربُّ لطريقي "[٨٦] ، بل دافعًا لهروبه.

– إلى ترشيش

إلى اليوم، لم يستطِع أحد أن يحدّد بدقّة أين تقع هذه المدينة. يحدّدها بعضهم في سردنيا، وآخرون في تونس، وآخرون أكثر احتمالاً في الجنوب الغربيّ لأسبانيا، تقريبا في مكان غير معروف للحقبة المعاصرة لهم، إنّما ما هو مؤكّد أنّها في الاتّجاه المعاكس تمامًا لمدينة نينوى.

هناك شواهد عديدة في الكتاب المقدّس توضّح ملامح ترشيش: غناها الفاحش وأسطولها البحريّ[٨٧] ، ثمّ بعدها التامّ. تمثّل ترشيش، بالنسبة لبني إسرائيل، قبل أيّ شيء، ميناء بعيد المنال، في أقاصي الأرض، درجة إنّ ملك يهوذا أراد أن يكون حليفًا لملك إسرائيل، ليبني سفنا تستطيع أن تصل إلى ترشيش[٨٨]. فهي، إذا، مكان بعيد المنال درجة أنّ كلمة الله لم تصل إليها أبدًا[٨٩]. ممّا دفع يونان للهروب إليها.

– بعيدًا عن الله

إنّ ما يهمّ يونان هو البعد عن الربّ، هذا هو خلاصة موقفه. ليس كعدم طاعة لله فقط، بل أيضًا يرغب في استحالة الوصول إليه. يبغي، ألاّ يكون" في سلام" فقط، بل يرغب في الحصول على " السلام ".

يتكرّر لفظ " هروب يونان " في هذه الآية: ثلاث مرّات تجاه ترشيش، ومرّتين الهروب من الله الحاضر؟

---

٨٤. ١مل ١٩/ ١-٣.
٨٥. إر ٢٦/ ٢٠-٢١.
٨٦. مز ١١٩/ ١٠٥.
٨٧. ١مل ١٠/ ٢٢؛ ٢٢/ ٤٩؛ ٢أخ ٩/ ٢١؛ مز٤٨/ ٨؛ ٧٢/ ١٠؛ نش ٥/ ١٤؛ أش٢/ ١٦؛ ٢٣/ ١؛ ٦٠/ ٩؛ إر ١٠/ ٩؛ حز ٢٧/ ١٢؛ ٢٧/ ٢٥؛ ٣٨/ ١٣.
٨٨. ٢ اخ ٢٠/ ٣٦.
٨٩. أش ٦٦/ ١٩.

عبث الهروب، إذا صحّ القول، متذكّرين مزمور ١٣٩: " أين أذهبُ من روحك؟ أين أهربُ من وجهك؟ إنْ تسَلَّقْتُ السَّماء فأنت فيها، وإن نزلتُ إلى عالم الأموات فأنت هُناك. إن أتَّخذتُ أجنحة السَّحر وسكنت في أقاصي اليمِّ، فهنُاك أيضًا يدُك تهديني ويمينُك تُمسكُني. تأمُرُ الظَّلام فينجلي، واللَّيل فيصبح نورًا. لديك لا يُظْلمُ الظَّلامُ، واللَّيلُ يُضيءُ كالنَّهار. فالظَّلامُ عندك كالنُّور"[٩٠].

نصّ كتابيّ آخر يسرد هروب قايين. فبعد أن قتل أخاه هابيل، ابتعد عن وجه الربّ [٩١]، مكرّرا الكلمة المستخدمة نفسها " وجه ".

أخذ مسافة عن وجه الربّ، عن حضوره، في الواقع، هي إجابة عكسيّة، غير متوقّعة، من نبيّ. إنّ ما يميّز النبيّ، في الكتاب المقدّس، هو السعي المتواصل والدؤوب للوقوف والمكوث في حضرة الربّ، بطاعة تامّة واحترام صادق: "حيّ هو الربّ الحاضر أمامه"[٩٢]. نلاحظ أنّ "التلمود" (كلمة عبريّة تدلّ على تعليم الكتاب المقدّس والتقليد اليهوديّ) يؤكّد هروب يونان من المدينة التي هي مقر "الشكيناه"، أي حضور الله[٩٣].

- نزل إلى يافا

التناقض الرائع في التعبير المستخدم، حيث شرور نينوى تصعد إلى الرب، بينما ينزل أو يهبط يونان تجاه يافا. يافا هي ميناء أورشليم (تل أبيب حاليًا). هناك، حسب أعمال الرسل، أعاد بطرس طابيثا إلى الحياة، كذلك رأى رؤية من أجل الذهاب إلى قائد المائة كورنيليوس[٩٤].

- فوجد سفينة متّجهة إلى ترشيش

أفعال عديدة في آية واحدة، تشير إلى سرعة يونان ورغبته الحثيثة في الابتعاد عن الله: " قام "، " هرب "، " نزل "، " يجد "، " اتّجه "، " دفع "، " ركب "!. نحن هنا بصدد الفعل الرابع " وجد ". هنا نلاحظ، أنّ الحظّ يقف بجانب يونان،

٩٠. مز ١٣٩/٧-١٢.
٩١. تك ١٦/٤،١٤.
٩٢. ١مل ١٨/١٥؛ أر ١٥/١٩؛ ١٨/٢٠.
93. MORA, *Jonas*,9.
٩٤. أع ٩/٣٦؛ ١٠/١٠...إلخ.

فيجد سريعًا سفينة تذهب به حيث قّرر أن يذهب، إلى ترشيش. في الوقت نفسه، نعرف أنّ العبرانيّين يخافون ركوب البحر.

دفع أجرتها

لم يرغب يونان الهروب مستترًا، على الأقلّ مستوى دفع مصاريف الانتقال، يريد أن تكون أوراقه سليمة. لا شكّ أنّ الأجرة باهظة لطول المسافة. لم يهتمّ بأن يقدّم نفسه كملاّح صغير. لديه النقود ويدفع الأجرة. لا يريد أن يثقل على أحد، ولا حتّى الله، لا يريد جميلا من أحد.

نزل فيها ليذهب معهم إلي ترشيش

يستخدم الكاتب التعبير العبريّ "نزل"، بدلاً من استخدام التعبير اليونانيّ "ركب"، ليؤكّد مسيرة يونان في الابتعاد عن الله: نزل إلى يافا، ثمّ نزل إلى السفينة، هو فعل نزول مستمرّ. لم يشكّل السفر مع الملاّحين، الوثنيّين، الغرباء، أيّة مشكلة بالنسبة ليونان النبيّ، بالطبع الذين لم يأتِ ذكرهم سابقًا.

بعيدا عن الربّ

التعبير " الابتعاد عن وجه الربّ" في بداية الآية الثالثة ونهايتها: ذاهبا إلى ترشيش، بعيدا عن وجه الربّ. هذا هو هدف وتوجّه يونان في رحلته " الابتعاد عن وجه الرب".

التـــــأمـّــــــل

هذه الكلمة المقدّسة، كما في أيّة كلمة أخرى، تثير فينا التساؤل، هذه الكلمة موجّهه لنا اليوم. هل من شيء تقوله لنا، تشقّ طرقا جديدة في حياتنا لنسلك فيها.

١- صمت الإنسان

رأينا سابقا أنّ **الله** يأتمن يونان على رسالة خاصّة. ما أودّ أن أؤكّد عليه الآن، أنّ **الله** يفعل ذلك من خلال كلمته: **الله يُكلّم** الإنسان. يبدو أنّ ذلك شيء طبيعيّ، إنّما في الواقع ليس الأمر كذلك. إنّ إلهًا يتحدّث، كما يقدّمه لنا سفر المزامير، هو إله يختلف عن باقي الآلهة. إله يتحدّث، هو إله يريد أن يدخل في علاقة وتواصل، إله لا يحيا في غلاف جميل منعزل، بل يبحث عن اتّصال وتواصل، عن شركة. إنّه إله يأخذ المبادرة، إله يهبط وينزل، يستخدم قنواتنا للاتّصال بنا ويلحقنا، يرغب في شركة وتواصل معنا.

أمام هذه الكلمة التي تقتحم حياة يونان و حياتنا، لا يعقبها أيّة كلمات. هناك الصمت – الصمت الإنسانيّ.

ليس الصمت غريبًا عنّا. هناك أنواع هامّة من الصمت في حياتنا. هناك صمت الإصغاء والاستماع، وهناك صمت الاحتواء من أجل استقبال كلمة. هناك صمت الغياب، وصمت القبول أمام كلمة. هناك الصمت، الذي يفضّله بعضهم في حالات مؤلمة، الذي هو أبلغ من الكلام. هناك الصمت الذي يُفهم ويُقدّر هكذا. إنّما هناك،أيضا، الصمت الذي يتحاشى ويتجنّب الالتزام، صمت غير المستحق، صمت الذي ليس لديه وقت ليخسره، صمت غير المُبالي؛ أو الصمت الأسوأ، صمت المكتفي بذاته. كثيرا ما نفضّل كلمة صعبة عن موقف اللامبالاة. كم هو عميق الألم الذي يولد داخلنا عندما نرفض الكلمة، أو عندما لا نكون مستحقّين لها، بمعنى آخر عندما لا تجد الكلمة التربة الصالحة داخلنا لاستقبالها!

تُرى أيّ نوع من الصمت اختبره يونان؟ تُرى: الخوف، اللامبالاة، عدم رغبة الدخول في علاقة؟ من يدري! ربّما كلّ هذا معًا. يظلّ الحدث الأساسيّ: إله **يتكلّم** بينما يونان **يصمت**. كثيرا ما نختبر نحن أيضا هذا، ليس مع الآخرين فقطّ، بل مع **الله** ذاته. عندما يصير الكتاب المقدّس كلمة، نقرّر غلق الكتاب المقدّس حتّى لا نصغي للكلمة. هنا تظهر الرغبة في عدم الحوار. من الأفضل أن نصمت. فالله دائما خطير. يقول كلمة ولا نعرف إلى أيّ مدى تحملنا هذه الكلمة، يقول كارل بارت: " **الله** القدّوس خطير دائمًا، بالنسبة للإنسان "[٩٥].

٢- الهروب إجابة

كما ذكرنا آنفا، بوضوح، فإنّ إجابة يونان هي إجابة غير منطقيّة. فليست الإجابة كلمات، إنّما أفعال. هكذا جاوب العديد على دعوة يسوع لهم في الإنجيل[٩٦]. هنا ليس كذلك، فأفعال يونان النبيّ لا تتّفق مع الإجابة. يونان نعم يقوم، إنّما ليهرب، نعم يذهب، إنّما ليزيد بعد المسافة عن **الله**.

يونان سمع ولم يطع. ليس هذا ما يتمنّاه يونان. فإنّ دعوة **الله** له، لم تتّفق مع ما خطّطه لنفسه، مشروع **لله** يتناقض ويصطدم مع عالمه، وبالتالي فضّل الأخير أي عالمه. لم يكن يونان شجاعا لأن ينظر وجه **الله**، ففضّل أن يدير ظهره هاربا. لم يهتمّ أن يقدّم أعذارًا[٩٧]. يونان، يعلم جيّدًا، أنّ إلهه سوف يحمّله أحمالاً، الحمل بعد الحمل، خاصّة ، يعهد إليه بالمسؤوليّة أمام المشاكل، ويمدّه بالعون القليل. لم تحتمل إجابة يونان التردّد. كان ردّ يونان جاهزًا، فعندما فاجأه **الله** داعيًا إيّاه، قال ما فكّر وخطّط له، وقرّره سابقًا: " تاريخي أكتبه أنا!" هكذا يفكّر يونان، داخلنا " الإجابة جاهزة ". هنا تتوفّر العناصر كلّها حتّى لا يكون هناك عبرانيّ صالح: " المادّة الثقيلة، الوعي الكامل، القبول الحرّ" هي عناصر الخطيئة المميتة". نحيا ونختبر، أيضًا، في فترة من فترات حياتنا، أنّ للهروب طعم النصرة والفخر. نهرب، مرارًا، من أشياء كثيرة. نهرب من المسؤوليّة، أحيانًا بدافع زائف ندّعي التواضع. نهرب من الروابط والعلاقات

---

95. K. BARTH, *Dogmatique*, II/1,2 Labor et Fides, Genéve 1957; 112.

٩٦. لو ٥/١-١١.
٩٧. لو ١٤/١٥-٢٢.

العميقة، لأنّ " هناك دائما مشاكل قد نقع فيها ". نهرب من ذواتنا، دون تفكير فيمَن حولنا، وكيف يحيون ، كأنّ كلّ شيء سوف يحلّ وحده. أيضاً نهرب من الله، ليس بعد أن يدعونا فقط. أحيانا نهرب من الله قبل أن يدعونا: " فالوقاية خير من العلاج " هكذا يقول المثل، فمع الله لا نعرف ما هو مدبَّر لنا. يعلّق أحد شارحي سفر يونان، على هذه الآية،إنّنا نجد تماثلا عجيبا مع حياتنا:" يجب أن نخلّص ذواتنا، يجب الهرب أوّلاً بقدر المستطاع، يجب ألاّ ننتظر ... لا ننتظر حتّى يكلّمنا الربّ! بمجرّد أن يشير إلينا بكلمة، يجب الهرب من وجهه! إنّما أين نهرب؟ أين؟ الله رهيب، إذا فقط أصغيت له! الأفضل هو الهروب سريعًا، لا تمكث، لأنّ من يقع بين يديه لا يخلص! يترك الشيطان لنا دائمًا شيئًا ما، الجميع يتركون لنا شيئًا، لذلك من السهل أن نجاوب على الجميع، دون أن نجاوب على الله. الله لا يترك لنا شيئًا، يحرقنا. لقد فهم يونان ذلك جيّدا"[98]. رغم ذلك، فالهروب لن يحلّ شيئًا مطلقًا. إنّه يحمل دائما خلفه كلّ ما لم نرغب فيه، أن نراه وجها لوجه. يكتب كيركجارد: " أؤمن أنّه، إذا أتى يوم لأصبح مسيحيًّا حقيقيًّا، يجب أن أخجل، بالأخصّ، ليس لأنّني لم أكن ذلك من قبل، بل لأنّني جرّبت كلّ الحيل للهروب منه "[99].

٣- تجربة السهولة

إنّ الذهاب إلى نينوى يعني، بالنسبة ليونان، الذهاب إلى الحدود القصوى، كما نقول اليوم، الذهاب إلى المنفى. بالنسبة لإسرائيليّ، في القرن الأوّل بعد المسيح، تمثّل روما الإمبراطوريّة، مقارنة بالمقاطعة الصغرى أورشليم[١٠٠]. على هذا المثال، شعر يونان في زمانه: نينوى هي الإمبراطوريّة التي جعلت أورشليم عبدة لها. إنّ تعبير " المدينة العظمى " تُشكّل لنا، أيضا اليوم، صعوبة، خوفا، حيث نختبر التناقض الكبير بين: الخير والشر؛ الكبير والصغير؛ الغنيّ والفقير؛ الإيمان والإلحاد، الاختلاف الاجتماعيّ بين الطبقات، والأعداد الغفيرة[١٠١]. في المدن العظمى نجد كلّ شيء، الشيء ونقيضه، حيث كلّ الوجوه وعدم وضوح الوجوه، فالأعداد الغفيرة والمجهولون، ممّا يسبّب إحساسًا مخيفًا. ليس سهلًا

98. D. BARSOTTI, Meditazione sul libro di Giona, Queriniana, Brescia 1972, 30.
99. S. KIERKEGAARD, Diario, 8 dicember 1837, BUR, Milano 1996, 37.

١٠٠. إنّها خبرة صعوبة الانتقال من القرية إلى المدينة و التأقلم فيها.
١٠١. خبرة الكاتب طه حسين في رواية «الايام»، و ذهابه إلى فرنسا بلد الجنّ و الملائكة.

مطلقًا التبشير بالإنجيل في المدن العظمى، سواء بالأمس، على مثال نينوى، أو في مدن زمننا الحاضر.
يعرف يونان ذلك جيّدًا، ويختار الاتّجاه المعاكس " ترشيش "، عكس ما دعاه الله إليها وأرسله. يصبّ اختياره تجاه الأسهل والمريح. يذهب حيث يفكّر، حيث لا مشاكل، حيث يبدو لنا، إنّه المكان الأفضل لقيادة جماعة معيّنة، عمل معيّن. تظلّ المشكلة، على أيّ حال، في معرفة أيّ شيء نفضّله: لمن الأوّلية، نحن أم الله؟ دعوته لنا أم مشاريعنا؟

تمثّل ترشيش، بالنسبة لنا، كما ذكرنا سابقا، عالم التجارة، الغنى الفاحش، السهولة والراحة، بكلّ أشكالها المتنوّعة. في الواقع، كثيرًا ما ننزلق بسهولة نحو هذه الاختيارات المثيرة! تمثّل لنا ترشيش النزول والهبوط السريع نحو الراحة والرفاهية الرخيصة. فنحدّد اختياراتنا بمقاييس، غالبًا تتّجه نحو: " أقلّ ما يمكن دفعه أو بذله"، أو " بمقدار النفعيّة العائدة إلينا إنسانيًا "، أيضًا الصداقة المشروطة بالنفع الذي يغنينا " (جاور السعيد تسعد)، ويصبح الروتين عائقًا ومانعا للخروج من موضع الراحة من أجل لقاء الآخرين، في مشاكلهم، وحياتهم الأصعب من حياتنا

(راجع مثَل صديق نصف الليل المزعج[١٠٢]). إذا، هنا يتجلّى شيء ما يناقض الإنجيل، الذي يعلّمنا مَن يريد أن يربح ذاته يخسرها[١٠٣]. في كلّ هذا، تظلّ ترشيش، دائما، الوضع الذي أبحث عنه، دون النظر لمقاييس الله، والذي قد يصل بنا إلى درجة السير ضدّ إرادته، أي رفضها.

٤- وهم الهروب

هرب يونان، ذهب عكس ما كان يجب أن يذهب إليه، فضلّ البعد عن القرب، آخذًا مسافة عمّن يبحث عنه، عن إلهه الذي يرسله (أهرب من الذي يشتريني، وأدوّر عن الذي يبيعني). هاربا من وجه الله، متحاشيا لقاءه: هذا هدفه الأخير. هكذا نحن، أيضًا، يونان الصغير الذي داخلنا، لنا طرقنا، أزمنتنا الخاصّة، نتحاشى

---

١٠٢. لو ١١/٥-٣١.
١٠٣. مت ١٠/٣٩؛يو ١٢/٢٥.

بها لقاء وجه الله. بالطبع يحدث هذا بأسلوب رقيق، دبلوماسيّ (طرقكم ليست كطرقي يقول الربّ ...). ليس من الضروريّ أن ننزل ونبحر في سفن ترشيش. ليس ضرورة أن نبتعد كثيرًا. يكفي اتّباع توجّهات معيّنة حتّى نأخذ مسافة. على سبيل المثال، تحاشي الصمت الذي يقود إلى الإصغاء، قدر الإمكان: صمتا يملأه الله! (مثال مريم أمّ الله/ مريم جالسة تحت أقدام يسوع)[١٠٤]. عدم الاهتمام بقراءة متعمّقة ودائمة للكتاب المقدّس:والذي يكلّمنا الله من خلاله! الهروب من الخلوات الروحيّة: حيث، عادة، يعبر بنا الله صحراءنا! تحاشي الاقتراب من الآخر: حيث، عادة، ما يختبئ الله فيه، كلّ ما فعلتموه بأحد هؤلاء الصغار فلي فعلتموه[١٠٥].

لا يجب أن نخدع أنفسنا: من الصعب أو المستحيل الابتعاد أو الهروب من الله، أو بالحري من الصعب أن يبتعد الله عنا: " الربّ لا يتخلّ عن أتقيائه "[١٠٦]. يكتب J.Green " الله يلحقنا خطوة خطوة، قد لا ندرك ذلك. هناك بعض الأوقات نحتاج فيها أن نقول له اذهب عنّا، كما لو أنّه شحّاذ، أن يبتعد ولو لحظة، ثمّ يعود مرّة أخرى. ابتعد عنّي يا ربّ. اتركني أتمتّع قليلاً. إنّك تؤرقني، اتركني! إنّما، الربّ لا يذهب. لقد تعوّد الإهانة والاحتقار"[١٠٧].

٥- ثمن الهروب

إذا ما أمعنّا النظر في تاريخ يونان، ندرك تاريخنا أيضًا، تاريخا ليس دائما نبيلا، مُشرقا، صالحا للنشر، حسن القدوة، إلاّ أنّه تاريخنا الحقيقيّ. إنّه تاريخ الخطيئة التي نعيشها ونختبرها يوميًّا. ليس، الشرّ الذي نواجهه يوميًّا، إنّما، أيضًا، الذي نفعله، و يجب أن نقاومه.

يعلّمنا يونان بسلوكه الغريب! أيضا الشرّ (وفي الواقع هذا السلوك ليس غريبًا). يمكن أن يكون هذا الشرّ مبرمجًا داخلنا وليس فجائيًّا، أو محض الصدفة. فقبل أن يذهب يونان إلى ترشيش، نزل إلى يافا. لقد أعدّ العدّة، ورتّب أمره.

---

١٠٤. لو ٢/١٠ب: ٣٩/١٠.
١٠٥. مت ٢٥/ ٤٠.
١٠٦. مز ٣٧/ ٢٨.

107. RAVASI, *Il silenzio di Dio, Riflessioni sul libro di Geremia*,98.

إنّها مرحلة وسطيّة، هكذا كما في الخير كذلك في الشرّ، هناك مراحل وخطوات يوميّة صغيرة، تحملنا رويدًا بعيدًا عمّا يجب أن نسلكه. في الواقع، كان يونان مستعدًّا ليدفع ثمن هروبه، حتّى لا يذهب إلى نينوى، أو بالحري ليذهب وينزل إلى ترشيش. إلى هذه الدرجة، أراد الهروب من الله، في الوقت نفسه، أمام الناس يهرب بشرف وبسمعة جيّدة.

(بماء الوجه)، يهرب ليس كلاجئ بل كمسافر. في الواقع، نحن لا نبذل الجهد، في عمل الخير فقطّ، بل في عمل الشرّ أيضا. نحتمل ونقبل أيضًا، التضحيات في سبيل الشرّ، كثيرًا ما نختبر أن للهروب ثمنا وثمنًا باهظًا: من أجل الحصول على السلام والهدوء الشخصيّ الفرديّ، من أجل الحفاظ على نوعيّة معيّنة من العلاقات، من أجل مصالحة رخيصة مع الضمير (المسالمة)، أي فقدان التناغم بين الإيمان والحياة (تجزئة الإيمان: نؤمن بالله نعم، بالكنيسة لا).

"مناجاة"

نحن، أيضًا، يا ربّ

كثيرًا ما نصبح صامتين

نخفي سريعًا صعوبتنا أمام طاعتك.

نعرف الهروب، وهي إجابتنا الوحيدة التي نعرف أن نقدّمها

لقد تعلمناها بإتقان واحتراف.

لدينا الخوف ممّا تطلبه منّا،

نخاف أن تطلب الكثير، الذي يفوق قدرتنا.

أحيانًا، نرغب، أن تتركنا في سلامنا الخاصّ،

تقريبًا، أنت السبب الوحيد في تدمير سلامنا، بل إنّك تنزع عنّا سلامنا.

بالتأكيد، أنت لا تريد سلام الآذان والعيون المغلقة، سجينة الخوف،

أو السلام الناتج عن اختيار السهل والمريح.

إنّما نعرف أيضًا، أنّه لا سلام حقيقيّ دونك أو بعيدا عنك؟

السلام لكم، ليس كما يعطيكم العالم، سلامي أمنحكم، إنّه سلام المناضلين.

يا ربّ، اسمح لنا، في نهاية إبحارنا الخاطئ، أن ترسو سفينة حياتنا في مينائك، حيث السلام الحقيقيّ والراحة الأكيدة.

آمين.

يا ملك السلام، أعطنا سلامك قرّر لنا سلامك.

تساؤلات

١. ما هي أشكال الصمت الأساسيّة في حياتي؟

٢. إذا راجعت حياتي، هل أجد نفسي أكثر في يونان المرسل أم في الشخص الهارب؟

٣. لأيّ شيء أهرب ؟ وممّن أهرب؟

٤. ما هي مقاييس التزاماتي، وإجاباتي عن دعوة الله لي؟ هل مقاييسها السهولة والراحة أم هي إجابة حقيقيّة؟

٥. هل اسمح لله أن يلتقي بي في الصمت (أغلق فمي): في الصلاة؛ في الكلمة؛ هل هناك أزمنة مخصّصة للقاء الله، وأماكن؟

٦. ما هو الثمن الذي أدفعه لكي آخذ مسافة للابتعاد عن الله، عن إرادته، حتّى لا أجاوب عن دعوته لي؟

الفصل الرابع

التاريخ بين يدي الله

(يون ١/ ٤-٧)

"مناجاة"

يا ربّ، أنت لا تكلّ أبدًا.

لا تكلّ أن تدعونا.

لا تكلّ أن تُرسلنا.

لا تكلّ أن تكلّمنا.

أن تعطيَنا دائمًا كلمتك بغنًى.

ونحن عطشى إلى الحقيقة التي لا تمرّ بنا إلى الأبد،

ها نضع أنفسنا مجدّدا، في وضع إصغاء واستقبال.

يا ربّ، تحدّث

تكلّم أيضًا الآن،

افتح في قلوبنا دروبًا جديدة،

لم نسلكها بعد.

انزل، اليوم، أيضًا، واعمل في حقل حياتنا.

تجد زوايا ومناطق أكثر خصوبة،

انثر بذورك فيها، بسخاء.

ونحن نضع كلّ ما نملكه،

حتّى تعطي في النهاية ثمارًا يافعة.

آمين.

نص يونان ١/ ٤-٧

" فحرَّك الرّبُّ ريحًا شديدًة على البحر، فثارت زوبعةٌ عظيمةُ كادت تُحطم السَّفينة. فخاف الملاَّحون وصرخوا، كلٌ واحد إلى إلهه. وألقوا الأمتعة الّتي في السَّفينة إلى البحر ليُخفّفوا عنهم. أمّا يونان فنزل إلى جوف السَّفينة واضطجع واستغرق في النّوم.

فاقترب منه القبطان وقال له:" ما بالُك مُستغرقًا في النّوم ؟ قم ادعُ إلى إلهك لعلَّه يفكّر فينا فلا نهلك " وقال بعضهم لبعض:" تعالوْا نُلْقي القرعة لنعلم بسبب مَنْ أصابنا هذا الشَّرُّ". فألقوا القرعة فوقعت على يونان ".

هنا بدأت الرحلة. ولكن ليس كما كان يونان متوقّعًا، حيث الهروب والهدوء والسلام الخاصّ. إلاّ أنّها الرحلة التي اختارها ونظّمها ودفع الثمن الباهظ، فهي رحلته الخاصّة. " فتأتي الريح بما لا تشتهي السفن ".

٤- إلاّ أنّ الربّ حرّك ريحًا شديدة (عاتية) على البحر

يوضّح التعبير "إلاّ "، أنّه رغم التخطيط الإنسانيّ المحسوب ، وضماناته، وقدراته، إلاّ أنّه ليس كلّ شيء في يد الإنسان، ولا أيضًا بالنسبة ليونان الإنسان الهارب. لا يزال في يد الله جميع الخيوط، فهو المؤلّف والبطل: "إلاّ أنّ الربّ حرّك ريحًا عاتية على البحر". يستخدم الكاتب الفعل اليونانيّ " أرسل"، في حين يستخدم النصّ العبريّ الفعل " ألقى/ طرح" الذي يتكرّر كثيرًا: ألقى الربّ ريحًا (الآية ٤)؛ ألقى الملاّحون أمتعتهم (الآية ٥)؛ طلب يونان أن يطرح/ يلقى في البحر(الآية ١٢)؛ ثمّ يلقي الملاحون يونان في الماء ليخلصوا (الآية ١٥).

فثارت زوبعة عظيمة كادت تحطّم السفينة

هكذا لا تصمد السفن الكبرى أمام العواصف وسط البحار والمحيطات. اختبر ذلك كاتب المزمور فقال: "ريح شرقيّة تحطّم سفن ترشيش"[١٠٨]. إنّها خبرة

١٠٨. مز ٤٨/ ٨.

الغرق، التي تعرضت لها السفينة الشهيرة تيتانك. يقول القديس جيروم: "كانت السفينة في خطر، لأنها تحتوي على شخص خطير"[١٠٩].

٥- فخاف الملاّحون وصرخوا، كلّ واحد إلى إلهه

بعد أن قدّم لنا كاتب السفر عناصر الطبيعة الخاصّة: الريح العاتية، البحر، النوّة، يقدّم لنا الأشخاص الذين على ظهر السفينة المعرّضين للهلاك.

أوّلاً: **الملاّحون**: القادمون من أماكن مختلفة، كلّ له إلهه يصلّي له. حسب التقليد الرابينيّ، عددهم سبعون ملاّحًا، يمثّلون جميع شعوب الأرض، أي العالم في شموليّته، الحاضر والشاهد عمّا يحدث بين الله ويونان. لقد أخذهم الخوف، وتملّكهم الرعب أمام ما يحدث، على مثال الشعب الإسرائيليّ لدى عبورهم البحر الأحمر: " ولمّا اقترب فرعون رفع بنو إسرائيل عيونهم، فرأوا المصريّين يتبعونهم. فخافوا جدًّا وصرخوا إلى الربّ"[١١٠]. هكذا بدأ الملاّحون، خروجًا وعبورًا من حالة الوثنيّة إلى اكتشاف إله إسرائيل.

الفعل الأول: خاف

هنا يظهر لأوّل مرة الفعل العبريّ " خاف" الذي يتكرّر أربع مرّات في الإصحاح الأوّل.

الأوّل: المستخدم في وصف حالة الخوف لدى الملاّحين أمام النوّة (الآية ٥).
الثاني: يستخدمه يونان للتعبير عن إيمانه: أنا أخاف الربّ (الآية ٩).
الثالث: ردّ فعل الملاحين أمام هذا الاعتراف الإيمانيّ (الآية ١٠).
الرابع: يعبّر عن مشاعر الملاحين أمام إله إسرائيل (الآية ١٦).
على أيّة حال: أمام حدث، هكذا صعب، وخطير، فإنّ أوّل ردّ فعل مباشر تلقائيّ هو اللجوء إلى آلهتهم، في الواقع، الملاّحون مؤمنون. يستخدمون الورقة الأولى في اللعبة، تأتي في المقام الأوّل علامة إيمانهم أي الصلاة، قبل اللجوء إلى الوسائل التقنية الخاصّة بالملاحة.

---

109. SAN GIROLAMO, *Commentaire sur Jonas*: SCh 323, I, 4 (Les Éditions du Cerf, Paris 1985, 189).

١١٠. خر ١٤/١٠.

الفعل الثاني: طرحوا

طرحوا أمتعتهم في البحر ليخفّفوا من حمل السفينة. هكذا مباشرة، بعد الالتجاء إلى آلهتهم، بدأوا أوّلا في طرح الأشياء الزائدة عن الحاجة، بسهولة، ثمّ تدريجيّا إلى الأشياء النافعة، ثمّ تلا ذلك الأشياء التي يتاجرون فيها، ثمّ الأشياء الأساسيّة والضروريّة حتّى تسير السفينة بسهولة. يلعب الزمن دورًا في منتهى الخطورة، في هذه الحالات الحرجة. ويعود الفعل طرحوا/ ألقوا مرّة أخرى.

أمّا يونان، نزل إلى جوف السفينة، واضطجع واستغرق في النوم الثقيل.
ينتقل الكاتب من خوف وصلاة الملاّحين إلى نوم يونان العميق. يستخدم كاتب السفر الفعل " نزل "، ليشير إلى استمرار يونان في النزول والهبوط، والابتعاد عن الله، مختبئًا في" جوف " السفينة، هاربًا من وجه الله، متشبّها بآدم في الفردوس[111]. إن ما يدهشنا، أنّه وسط خطر تحطّم السفينة من فعل النوّة، وأمام صراخ وهلع الجميع ، هناك من لديه إمكانيّة النوم العميق (الثقيل). أثار هذا الموقف فضول المفسرين ليجدوا تفسيرا لهذا النوم الغريب والثقيل. يقدّم القديس جيروم اقتراحين:
- الأوّل: إشارة إلى نوم الرسل الثلاثة في بستان الزيتون، حيث يتحدّث عن النوم الثقيل بسبب الخوف والحزن والكآبة[112].
- الثاني: يشير النوم الثقيل إلى " ثقل الخطأ " الذي يعصف ويدوي داخل يونان النبيّ[113]. وخلاصة القول، يمكننا القول: إنّ الهرب متعب لنا، أيضًا، وغالبًا ما ينتصر النوم في النهاية، إنّه نوم الهروب أيضًا.

٦- فاقترب منه القبطان وقال له: ما بالك مستغرقًا في النوم؟ " قُم وادعُ إلهك، لعلّه يفكّر فينا فلا نهلك "

يقدّم لنا كاتب السفر، بأسلوب رائع، رفض يونان الذهاب إلى نينوى المدينة الوثنيّة، بينما هنا يتّجه الوثنيّون نحوه ويتقابلون معه. كان من الواجب عليه،

---

١١١. تك ٣/١٠.
١١٢. لو ٢٢/٤٥.

113. SAN GIROLAMO, *Commentaire sur Jonas*: SCh 323 ,I, 5b,191.

كمؤمن يحمل رسالة، أن يتّجه إليهم ويتحدّث معهم، وهنا العكس، همُ الذين يبادرون بالحديث إليه. هنا التعبير المستخدم من الله في الآية الأولى والموجّه إلى يونان (قُم واصرخ)، على لسان الوثنيّين

(قم وادع). هنا، ليس الله الذي يدعوه للرسالة من أجل الوثنيّين، إنّما الوثنيّون هم الذين يدعونه من أجل الله!

نرى، هنا، قمّة التناقض الساخر والمدهش، فمن جهة، يصلّي الوثنيّون، بينما دخل العبرانيّ في سبات النوم، وأكثر من ذلك، بعد أن صلّى الوثنيّ، دعا العبرانيّ النبيّ إلى الصلاة بدلاً من النوم، فالصلاة خير من النوم.

أخيرًا، نجد ملاحظة لاهوتيّة، في غاية الأهمّيّة، مقدّمة لنا على لسان القبطان قائلاً: " لعلّ الله يفكّر فينا فلا نهلك "، التعبير " لعلّ " يشير ويذكّر أنّه لا يوجد شيء يجبر الله على فعل ما، أو أن يتدخّل بصورة ما. يظلّ الله حرًّا دائمًا. فكلّ ما يقدّمه الله للإنسان هو عطيّة مجانيّة، وهبة حرّة على الدوام. هذا التعبير الرقيق والرائع مرّة أخرى على لسان ملك نينوى، الملك الوثنيّ، في يون ٣/٩.

٧- وقال بعضهم لبعض " تعالوا نلقي القرعة لنعلم بسبب مَن أصابنا هذا الشرّ فألقوا القرعة فوقعت علي يونان"

لقد جرّب الملاّحون كلّ شيء: من الصلاة إلى تخفيف الأحمال والأثقال. وها الآن، يتّجهون إلى القرعة. نصل هنا إلى معتقدَين شائعين في تلك الحقبة:

الأوّل: إذا كانت هناك مصيبة وبليّة ما، فلا بدّ من وجود شخص ما مُسبّبا لها.

الثاني: يمكن اكتشاف السبب عن طريق إجراء القرعة (الزهر، الحجارة). كأنّ الله يتجاوب مع هذا الأسلوب التقليديّ/ البيئيّ، ليظهر الحقيقة المحتجبة عن أعين البشر:

" القرعة تلقى لتحكم في الأمور، ومن الرّبّ جميع أحكامها "[١١٤]. ساد هذا الاعتقاد، كثيرًا، حتّى القرون الوسطى.

هناك أمثلة عديدة من الكتاب المقدّس[١١٥]. تمّ اكتشاف يونان، بهذا الأسلوب، مذنبًا، سببا لهذه الكارثة. رغم صلاة الملاّحين، التي لم تأتِ بثمر، استمرّ البحر في هياجه والسفينة مهدّدة بالدمار، أمام هذا الحدث الخطير لا بدّ من البحث عن السبب، هناك شخص آثم على ظهر السفينة. هكذا يعبر يونان من النوم الثقيل إلى الاتهام الثقيل.

---

١١٤. أم ١٦/٣٣؛ خر ٢٨/٣٠.
١١٥. ١صم ١٤/٣٦ إلخ؛ ١٧/١٠ إلخ؛ عد٢٦/٥٢-٥٦.

التـــــأمّـــــل

بعد قراءة نصّ يونان نكتشف: لا شيء يهرب من بين يدّي الله، لا يمكن أن نُفاجأ الله، الله لا يخاف أو يرتعد، لا تهرب الحقيقة من يديه. إنّه الربّ (هكذا يقول يوحنّا عندما رأى يسوع ماشيا على البحر، والجميع خافوا كأنّه شبح). يقود الله التاريخ وليس العكس، فكلّ التاريخ بين يديه. الله هو كاتب التاريخ وشارحه، وليس نحن ، ويساعدنا على قراءته وفهمه (راجع حياة موسى النبيّ...)[116].

١– " النوّة " لحظة لقاء الله

خبرة الإبحار، أن نأخذ اتّساع البحر، أن نفرد القلوع/ الشراع: كلّها أساليب متنوّعة تشرح الحياة، أوهي لحظات متنوّعة من الحياة. أحيانًا كثيرة ما تختبر سفينةَ حياتِنا لحظاتٌ، ونوّات صعبة مؤلمة. يبدو كلّ شيء قد انتهى وهلك: المبادئ العظمى التي نؤمن بها، والصداقات العميقة التي أسّسنا عليها حياتنا. نلمس بأيدينا، في هذه اللحظات، فقر ما نحن عليه، فقر ما نحياه ونمتلكه من هوان وضعف. نختبر سفينة حياتنا بها ثقوب كثيرة، لا نستطيع إصلاحها. عندما نختبر نتساءل: ألم نخطئ عندما وضعنا ثقتنا في الله؟[117]، هل نام الله؟، هل يهتمّ بنا حقّا؟[118].

في تلك اللحظات التي تبدو وكأنّنا متروكون، غرباء في عزلة، بمفردنا (خبرة الإحساس بالغربة وعدم الفهم). كلّما زادت العزلة والغربة، يطرح السؤال حول معنى الحياة نفسها.

عندما تتراكم الصعوبات والمشاكل،

عندما تصعب السيطرة على المفاجآت المتوالية،

---

116. Don MILANI, Lettere di Don Lorenzo Milani, Priore di Barbiani, Mondadori, Milano 1988, 114.

١١٧. ٢تيم ١/١٢.
١١٨. مر ٤/٣٨.

عندما نصل درجة، لا يمكننا الاعتماد فيها على أحد،

عندما نكون بمفردنا، مع ذواتنا،

عندما نشعر بالخوف من ذواتنا،

وسط كلّ هذا، إنّ صراخنا يشقّ طريقًا في نهايته إجابة " خلّصنا يا ربّ! لقد هلكنا "[119].

تصبح هذه اللحظة الثمينة، أيضًا، لحظة لقاء مع **الله**. بالحري، بالنسبة للبعض، هي اللحظة الأكيدة والأعمق في خبرتهم الروحيّة. تصير النوّات رَحِمًا خصبا للقاء حقيقيّ وخلاصيّ، مع **الله** الذي لا يترك أبناءه أبدا[120].

٢- الآخرون يدعوننا إلى القيام

الملاحظة، أنّه في لحظة الخطر، وسط النوّة، هناك زمن للنوم الثقيل على مثال يونان. نلاحظ أيضًا، أنّ الملاحين الوثنيّين هم الذين يدعونه إلى النهوض والاستيقاظ، يرفعونه من عثرته.

هذا يذكرنا بمناسبات عديدة كنّا فيها محظوظين، قابلنا أشخاصا ساعدونا، رفعونا، أنهضونا من "نومنا الثقيل"[121]، شجّعونا على الاستمرار، دفعونا إلى التزام أعظم.

أحيانًا أخرى، ساعدونا في اكتشاف أنّنا ضللنا الطريق، دون افتخار أو خجل. ربّما أصبحنا مأسورين بما اعتدنا عليه. أو لم نعد نرَ الطريق بوضوح؛ ربّما نشعر بالعجز أن نفعل شيئًا مختلفا، أو نتعهّد بالتزام أكبر.

يكفي هزّة لنتذكّر سريعًا ما يجعلنا ننكمش وننطوي على أنفسنا، على حياتنا، معتقدين أنّنا لم نصبح أكفاء للمعركة، فالميدان للآخرين، والالتزام مجرّد

---

١١٩. مت ٨/٢٥.
١٢٠. أش ٤٩/١٤-١٥.
١٢١. رو ١٣/١١.

ذكرى، والفرح ترف زائد. ينتظر الكسالى الغد وأيديهم في جيوبهم، ويقدّم الغد للآخرين إمكانية مشكوكا فيها.

٣- البعيدون يحثّونا على الصلاة

يقدّم النصّ الملاّحين كرجال صلاة، بطريقة مختلفة عن شعب إسرائيل، إلاّ أنّهم يصلّون. بينما يونان لا يصلّي. هم الذين يدعون يونان إلى الصلاة. لم يفكّر يونان في ذلك هكذا يقول النصّ، ولم يذكر إن كان صلى فيما بعد.

عادة ما يحدث ذلك كثيرًا، فالبعيدون والذين خارج دائرة عالمنا، عالم القيم، غير المعتادين على الكنيسة، البعاد، والذين ليس لهم علاقة بتعاليم الكنيسة، هؤلاء بالأخصّ، يدعوننا إلى التعمّق في الإيمان، يحثّوننا للدخول في علاقة شخصيّة مع الربّ، أن نصير مسيحيّين حتّى النخاع. يفعلون ذلك بأساليب متنوّعة، عبر مواقف وكلمات تدعونا من جديد إلى ما هو أساسيّ وجوهريّ في حياتنا: نتذكّر صلوات مثل: " صلِّ لأجلي"؛ "اذكرني على مذبح الربّ". نتذكر الكثير من هذه الطلبات، عبر حياتنا، نكتشف أن البعيدين، بطرق متنوّعة، ينتظرون منّا كمؤمنين شيئًا ما. تذكّرنا طلباتهم أنّ للصلاة بُعدًا إرساليًّا، الصلاة ليست لأجلنا وأحبّائنا فقط، بل أيضًا لأجل البعيدين، الغرباء. تحثّنا طلباتهم إلى تعميق علاقتنا بالله.

٤- الأحمال غير الحيّة

أمام الخطر الذي يهدّد الحياة، يلقي الملاّحون الأحمال الزائدة في البحر، والضروريّة أحيانًا، من أجل الوصول إلى شاطئ الأمان. إذا كان هدفنا في الحياة، كما يقول القدّيس بولس الرسول، أن نوجد في المسيح[١٢٢]، علينا أن نعي جيّدًا، في هذه اللحظة المناسبة (النوّة). ما يمنع وصولنا إلى هذا الهدف: " ولكن ما كان لي من ربح، حسبته خسارة من أجل المسيح، بل أحسب كلّ شيءٍ خسارة من أجل الرِّبح الأعظم، وهو معرفة المسيح يسوع ربّي. من أجله

---

١٢٢. في ٣/٩.

خسرت كُلَّ شيءٍ وحسبت كُلَّ شيءٍ نفايَة لأربح المسيح "[١٢٣]. فالمسيح هو الغاية، برّ الأمان، المرسى الحقيقيّ، وكثيرًا ما نفضّل هذه الأشياء عن المسيح. هناك، ارتباطات، واجبات، وأماكن، وأفكار تعيق وتؤخّر مسيرتنا. طبيعيّ، أن تتراكم العوائق بمرور السنين. فإنّ كلّ ما يربطنا ويعيقنا أهمّ ممّا يدفعنا نحو الأمام. ما يعيقنا أكثر ممّا يحرّرنا. يتطلّب هذا الوضع فعل تطهير حقيقيّ لما هو ضروريّ، وليس مجرّد تطهير لبعض الأشياء السهلة، ممّا يسهّل حركتنا وانطلاقنا نحو الهدف. يقول سائح روسيّ: " بنعمة الله، أنا إنسان ومسيحيّ، وبالأفعال أنا خاطئ كبير، وبالدعوة أنا سائح بأدوات فقيرة، رحّال من مكان لآخر. خيراتي الأرضية هي جراب محمول على الظهر، يحتوي على قليل من الخبز الجاف، والكتاب المقدّس في حافظة قميصي الداخليّة. لا شيء أكثر من ذلك "[١٢٤].هي أشياء صغيرة، تكفي المسيحيّ.

بالعودة إلى الضروريّ والأساسيّ، إلى الاختيارات الأساسيّة، نصبح أكثر استعدادًا، لترك ما يعوقنا، ويمنعنا من السير بسرعة وخفّة والطيران لأعلى.

١٢٣. في ٣/٧-٨.

124. *Racconti di un Pellegrino russo*, Rusconi, Milano 1997,5.

"مناجاة"

يا ربّ،

كثيرًا ما نختبر لحظات ظلام،

تبدو سفينة حياتنا الصغيرة مملوءة بالثقوب،

محاطة بالمياه الراكدة من جميع الجهات.

نرى كلّ شيء مظلمًا، كلّ شيء كئيبا محزنا.

لدينا الانطباع أنّ الأشياء لديك كذلك،

تهرب الأوضاع من بين يديك كالماء.

يا ربّ، في تلك اللحظات،

لا تسمح أن تترك بحار اليأس والإحباط تهلكنا.

ساعدنا أن نُخرج، بما لدينا من قوّة قليلة،

هذه الصرخة الكبرى: " يا ربّ، خلصنا!".

اجعلنا أن نقبل بفرح ،

كلّ الدوافع والمنشطات التي توقظنا في شتاتنا.

ساعدنا لنكون منتبهين أمام النداءات الآتية من البعيدين،

التي تدعونا إلى التزام أعظم.

ادفعنا للذهاب نحو الأساسيّ في حياتنا،

فنلقي في البحر ما هو غير نافع وضار،

ما يعوق سيرنا بحرّيّة خلفك.

آمين.

تساؤلات

كيف أواجه الأزمات الصعبة في حياتي؟ هل أحياها كأزمنة اتّهام، لعنة، غضب وتمرّد، أم أحياها كدعوة لأن أضع كلّ حياتي بين يدي الربّ كفعل تسليم؟

هل أربط بين الله الذي يدعوني ويهبني فرصة لقائه، يوميًا، في الأزمات المختلفة؟

ما هي أزمنة النوم في حياتي؟

هل أترك نفسي لملاحظات الآخرين، وأعتبرها فرصة لحياة جديدة أم أعتبرها هجوما على شخصي؟

كيف أستقبل دعوات الصلاة من أجل الآخرين؟

هل مستعدّ أن أطرح كلّ شيء في البحر، لأحصل على حرّيّة أكثر اتّزانًا، منسجمة مع الآخرين؟

الفصل الخامس

الإيمان يتبع الحياة

(يون ١/٨ – ١٦)

"مناجاة"

يا ربّ، مجدّدًا،

ما هي كلمتك لنا؟

اليوم، ماذا تريد أن تقول لنا؟

كثيرًا، نعتقد، أنّنا سالكون حسب كلمتك، المنهمرة، والتي تُشبعنا بها على الدوام.

نودّ، أن نقول لك: "كفى!"

لدينا الكفاية.

ولكن، بعد التفكير بجدّية، يمكننا فقط أن نشكرك.

يا ربّ،لا تتركنا نضلّ الطريق،

حتّى إن صَعب علينا الإصغاء إليك، أو أن نحيا كما تريد.

يا ربّ، تعال، مرّة أخرى،

اطرق باب قلوبنا، اطرقه بشدّة.

لا نريد أن نكون غائبين عن لقائنا معك.

آمين.

فقالوا له: " أخبِرْنا بسبب من أصابنا هذا الشَّرُّ. ما عملك؟ ومِنْ أين جئت؟ وما بلادُك . ومِنْ أيِّ شعب أنت؟". فقال لهم:" أنا عبرانيٌّ، أتَّقي الرَّبَّ إله السَّماوات الّذي صنع البحر والبرَّ ". عندما علم الرِّجال منه أنه هارب من وجه الرّب خافوا خوفًا عظيمًا وقالوا له: "ما هذا الذي فعلْت؟". ثمّ قالوا له: " ماذا نفعل بك حتّى يسكن البحر عنّا؟" وكان البحرُ يزداد هياجًا. فقال لهم: " احملوني، وألقوني إلى البحر فيسكن البحر عنكم. فأنا أعرف أنَّ هذه الزَّوبعة العظيمة حلَّت بكم بسببي". ولكنَّ الرِّجال جدَّفوا ليرجعوا إلى البرِّ فلم يقدروا، لأنَّ البحر ازداد هياجًا عليهم. فصرخوا إلى الرَّبِّ وقالوا:" أيُّها الرَّبُّ، لا تهلكنا بسبب هذا الرَّجل، ولا تُلق علينا تبعة سفك دمه الزَّكيّ. فأنت أيُّها الربُّ فعلت كما شئت". ثمَّ حملوا يونان وألقوه إلى البحر، فوقف البحر عن هياجه. فخاف الرِّجال الرّبَّ خوفًا عظيمًا وذبحوا ذبيحة للرّبِّ ونذروا نذورًا.

هنا يبدأ الحوار بين الملاّحين الوثنيّين ويونان العبرانيّ.

٨- يسألون: اشرح لنا، إذًا، من السبب في هذه النوّة ؟ ما هو عملك؟ من أين أتيت؟ ما هي أرضك؟ ومن أيّ شعب أنت؟

أهملت بعض الطبعات (الأورشليميّة والنصّ اليونانيّ) التعبير" أخبرنا؟ " ، بدأت مباشرة بالتعبير: ما هو عملك، سرّك؟

في الواقع، يونان هو المسئول الأوّل عمّا يحدث، فتساءلوا مباشرة ما هو عملك؟. كان المعتقد الشائع في ذلك الوقت، أنّ هناك أعمالا ووظائف يرفضها البحر ولا يقبلها.

تهدف، الأسئلة المتتالية إلى التعرّف على الشخص المسبِّب لهذه الزوبعة، لتلافي الأضرار، قدر الإمكان، المصاحبة لوجوده على ظهر السفينة.

الشخص الغريب هو المتّهم، هو الضيف والعدوّ في الوقت نفسه. تهدف الوسائل المستخدمة من البحّارة للتقرّب من يونان، إلى نزع مكمن الخطر الكامن فيه، حاصرين حضوره في إطار الضيافة. لا يجب أن ننسى، في الوقت نفسه،

أنّ هذه التساؤلات لها طابع المحاكمة، ولكن في إطار راقٍ وخيّر. يحصي التقليد الرابّينيّ عدد قضاة السنهدريم بالسبعين، كذلك عدد البحّارة سبعون يمثّلون الشعوب الوثنيّة في شموليّتها، يتّهمون شخصا ينتمي للشعب العبرانيّ المختار.

٩- أجاب:" أنا عبرانيٌّ، أتَّقي الرّبَّ إله السّماوات الّذي صنع البحر والبرَّ "

نلاحظ أنّ هذه أولى كلمات يونان في هذا السفر، لم يجب عن دعوة الله، بينما هنا يجاوب على أسئلة الوثنيّين.

إلاّ أنّه، بانتباه وعناية شديدة، يتحاشى يونان الإجابة عن السؤال الأوّل، حول ما هو عملك؟ مجيبًا عن الأسئلة الأخرى التالية، من خلال إعلان إيمان، يتكوّن من جزأين:

الأوّل: يؤكّد فيها هُويّته، ليس العرقيّة والثقافية فقط بل أيضًا الدينيّة، وارتباطها بوحي الله الأوحد المعلن لموسى النبيّ. في الواقع يعلن حرفيًّا: "أخاف يهوه إله إسرائيل"[١٢٥].

الثاني: ينسب إلى إلهه القدرة على كلّ شيء: السماء والبحر والبرّ (هكذا تترجم الكلمة الأرض في هذا النصّ). يقودنا هذا التعبير (البرّ/ الجاف)، مجدّدا، إلى خبرة عبور البحر الأحمر[١٢٦]، حيث يصل بنو إسرائيل إلى البرّ عبر عبور البحر الأحمر. يستخدم النصّ الفعل " يفعل"، المستخدم في نصّ الخليقة[١٢٧].

يشير كلّ ما سبق ويشرح أنّ يونان يقدّم ذاته كرجل عبرانيّ كامل، يعرف إلهه، ويحتفظ بعَلاقة بنوّة وفعل طاعة معه، من خلال التعبير" أخاف/ أتقي الله". هو شخص مؤمن في خطّ مع الإيمان الإسرائيليّ، هنا يظهر التناقض الساخر (يونان الوحيد الذي يعترف بالله، والوحيد الذي لا يطيعه)[١٢٨]. الله الذي خلق الكون" إلوهيم "هو ذاته الذي يقود تاريخ الجنس البشريّ " أدوناي".

---

١٢٥. خر ٢/١٥.
١٢٦. خر ١٤/١٦.
١٢٧. تك ٢/٤.

128. O. BAUER, *Le jeu de Dieu et de Jonas*, Éditions du Moulin, Poliez- le- Grand 1996,20.

مرّة أخرى، يعرض كاتب السفر، في قمّة السخريّة: فالذي يهرب من وجه إلهه عابرًا البحر تجاه البرّ/ ترشيش ؛ يعرف تمامًا، أنّه سواء البحر أم البرّ صنعهما الله وهما في يديه! " لأنّ الرّبَّ إلهٌ عظيمٌ وملكٌ عظيمٌ على جميع الآلهة. بيده أعماق الأرض، وله أعالي الجبال. له البحر وهو صنعه، ويداه صوَّرتا اليابسة. تعالوا نسجد ونركع له وننحني أمام الرّبِّ خالقنا"[١٢٩].

١٠- " عندما علم الرِّجال منه أنّه هارب من وجه الرّبّ خافوا خوفًا عظيمًا وقالوا له: ما هذا الذي فعلْت؟".

في الواقع، بعد أن قدّم يونان اعترافه، اكتشف البحّارة الحقيقة: هروب يونان من وجه الله. بالطبع، لم يكن اعتراف يونان الإيمانيّ، ثمرة فعل شجاع، أو نتيجة غَيرة لا تقاوم من أجل إعلان إيمانه الخاصّ. إنّه، في النهاية، اعتراف منتزع، مغتصب دون عنف، تحت تأثير نيران الأسئلة التي تحيطه من سبعين شخصا، وهو الرمز المقتبس من التقليد الرابّينيّ.

هذا لا يمنع، وعي يونان التاريخيّ بهروبه من وجه الربّ. لقد أدرك الملاّحون مدى الخطأ الفادح المرتكب، والذي ولّد فيهم، تدريجيًّا، مجدّدا "الخوف" (الآية ٥).

بالحري يلّح هنا بصورة جليّة قائلاً : " فخاف الرجال خوفًا عظيمًا ". يتكرّر التعبير نفسه في الآية (١٦)، ليس خوفًا أمام عناصر الطبيعة كما في الآية (٥)، إنّما أمام إله يونان، أمام " يهوه ". يمكننا القول: خوف يونان أمام "يهوه "، تبعه خوف البحّارة من الربّ نفسه (يهوه). كثّف الملاّحون اهتمامهم على المرسل (يونان)، متسائلين: " لماذا فعلت ذلك ؟ ". هنا يضعونه أمام مسئوليّته، ويطلبون منه عدم التهرّب بعد الآن، أيقظوا فيه الشجاعة لكي ينظر داخله، أن يرجع إلى ذاته متسائلاً، أن تبزغ وتطفو حقيقة أفعاله الخاصّة. هنا، مرّة أخرى، يتجلّى التناقض الساخر والرائع حيث: يطلب الوثنيّون من يونان

---

١٢٩. مز ٩٥/٣-٦.

العبريّ كشف حساب عن مدى أمانته لإلهه. يعبّر القدّيس جيروم تعبيرا جميلا مفسّرًا هذه الآية: "عظيم الذي يهرب، إنّما الأعظم الذي يلحق ويقبض عليه بيده القديرة "[١٣٠].

١١- ثمّ قالوا له: " ماذا نفعل بك حتّى يسكن البحر عنّا؟ وكان البحر يزداد هياجًا".

يلحّ الكاتب على البعد الإنسانيّ الرائع للملاّحين الوثنيّين. يعلمون جيّدًا من السبب في هذه المشكلة، ومدى الصعوبة التي يواجهونها، والأسباب التي أدّت إليها. يمكنهم، بسهولة، دون أيّ إحساس بالذنب التخلّص من يونان السبب المباشر. إلاّ أنّهم لم يفعلوا ذلك. يعرفون جيّدًا ماذا يريدون، إنّما يسألون يونان، في الوقت نفسه، كيف يحصلون على الخلاص؟ " قال القدّيس جيروم: لقد شخّصت المرض، أشر علينا بالدواء الشافي"[١٣١].

١٢- " احملوني وألقوني إلى البحر فيسكن البحر عنكم. فأنا أعرف أنّ هذه الزوبعة العظيمة حلّت بكم بسببي ".

ترى ماذا يدور في فكر يونان! من يعرف؟ لقد دعا الملاّحون يونان إلى الصلاة ولم يصلِّ. أجبروه على اكتشاف خطيئته وإعلانها ، ولم يسأل الغفران عنها. طلبوا منه حلاً لمشاكلهم، فقدّم حلاً مباشرًا ذا طابع إنسانيّ بحت (أسلوب الهرب المعتاد عليه)، في الوقت نفسه أبعد ما يكون عن قلب وفكر الله. يبدو أن يونان يفضّل الموت بأيد بشريّة، عن أن يقبل رسالة صادرة من فم إلهه. بالفعل، ليس لدى يونان أيّة صعوبة في الاعتراف بأنّه سبب هذه النوّة/ الزوبعة. إلاّ أنّه، في الوقت نفسه، يفضّل الموت، مشيرًا عليهم بأن يلقوه في البحر، خير من قبوله إرادة الله.

١٣- " لكنّ الرجال جدّفوا ليرجعوا إلى البرّ فلم يقدّروا، لأنّ البحر ازداد هياجًا عليهم".

---

130. SAN GIROLAMO, *Commentaire sur Jonas*: SCh: 323,I, II, 203.
131. SAN GIROLAMO, *Commentaire sur Jonas*: SCh: 323,I, II, 205.

يسلّط، كاتب السفر، النور على الوثنيّين مظهِرًا دورهم الإيجابيّ. يبذل الملاّحون قصارى جهدهم، في محاولة أخيرة، للوصول إلى اليابسة، دون التضحية السهلة بيونان (اختيار الطريق الأصعب). بينما باتت محاولتهم بالفشل: فازداد البحر هياجًا واضطرابا بالرغم من محاولاتهم المضنية.

١٤- " فصرخوا إلى الربّ وقالوا :" أيّها الربّ، لا تهلكنا بسبب هذا الرجل، ولا تلق علينا تبعة سفك دمه الزكيّ. فأنت أيّها الربّ فعلت كما شئت".

نحن أمام قفزة نوعيّة سواء على مستوى التعبير المستخدم، أم على مستوى التعبير الإيمانيّ. فاستخدم الملاّحون في الآية (٥) التعبير " إلوهيم "، حيث يصرخ كلّ واحد إلى إلهه "إلوهيم "، الله الخالق (التكوين). كذلك دعوا يونان في الآية (٦) ليصرخ إلى إلهه " إلوهيم ". بينما في الآية (١٠) أمام اعتراف إيمان يونان، بدأ الملاّحون الوثنيّيون يستخدمون التعبير " يهوه" إله إسرائيل، متوجّهين بصلاتهم إلى إله يونان مباشرة. أوّل مرّة يلفظ باسم " يهوه" بلسان غير عبرانيّ في هذا السفر. إنّهم حاضرون بصلاتهم أمام الله، وحين يقرّون، في نهاية المطاف، إلقاء يونان في البحر، لا يفعلون ذلك بترحيب وقبول إنسانيّ بحت من أجل خلاصهم، إنّما لأنّهم اكتشفوا وعرفوا أنّ هذه هي إرادة الله

(يهوه)، تلك هي القفزة النوعيّة على المستوى الإيمانيّ من خلال الصلاة والعلاقة بالله وقت الشدائد.

استخدم الملاّحون، في هذه الآية، تعبيرين خاصّين بالكتاب المقدّس:

الأوّل: " دم بريء"[١٣٢]، هم لا يريدون سفك دم بريء، بينما تلطّخت أيادي الشعب الإسرائيليّ بهذه الجريمة الشنعاء[١٣٣].

الثاني: يذكرون في ختام صلاتهم كلمات تتّفق والمزمور[١٣٤]، مذكّرين الله أنّهم ليسوا المسئولين عمّا يحدث من أمور. من الأهمّيّة إيضاح أنّ الوثنيّين يصلّون بعبارات عزيزة وغالية على الشعب العبريّ.

---

١٣٢. تث ١٩/١٠:٢١/٨-٩؛ إر ٧/٦:٢ ٢/٣-إلخ.
١٣٣. ١مل ٢/٥؛ ٢مل ٢١/١٦؛ أش ٥٩/٧؛ إر ١٩/٤:٢٢/١٧-إلخ.
١٣٤. مز ١١٥/٣؛ ١٣٥/٦.

١٥- " ثمّ حملوا يونان وألقوه إلى البحر فوقف البحر عن هياجه "

ما كان يجب أن يحدث، وقد تأخّر تنفيذه إلى الآن، قد تمّ: أُلقي يونان إلى البحر (لماذا هذا التأخير كلّه، أما كان من الأفضل حلّ المشكلة مباشرة. بدون مسيرة تمييز جماعيّ، ما فائدة الحوار والتساؤلات؟، ما الحاجة إلى المشورة والصلاة لاكتشاف إرادة الله وسط الأزمات، إذا وصلنا إلى النتيجة نفسها). في الواقع، إنّه أسلوب صعب وليس السهل المريح، قد يبدو لأوّل وهلة أنّهم وصلوا إلى النتيجة نفسها. ليست النتائج هي المهمّة، بل الطريق الذي يصل بنا إلى هذه النتائج، أي المسيرة التي تمّت هي مسيرة نضج ونموّ.

يتجلّى ذلك في رثاء حزقيال من أجل صور: " وسقط في البحر يوم سقوطك غناك وتجارتك وبضاعتك وملاّحوك وربابنتك ونجّاروك وتجّارك وجميع جنودك وكلّ شعبك "[١٣٥]. حيث يلقي الوثنيّون بكلّ غناهم في البحر، بينما هنا يلقي الوثنيّون شخصا عبرانيًا في البحر. عاد الهدوء إلى البحر بمجرّد أن ألقي يونان فيه. هنا ينتهي مشهد البحر، الذي بدأ حينما أرسل الربّ ريحًا شديدة على البحر، والختام ألقى الملاّحون يونان في البحر. بدأت النوّة ثمّ انتهت حينما ابتلع البحر ما كان يطلبه ويبحث عنه، أي يونان النبيّ (القدّيس جيروم)[١٣٦].

ملاحظة أخيرة، يوجد توازٍ بين هذا النصّ ونصّ[١٣٧]: "البحر يتحوّل إلى يبس"، هناك إلحاح واضح أنّ "مخافة الربّ" تذكّرنا، مرّة ثانية، بعبور البحر الأحمر[١٣٨]. في الخروج، يغرق الوثنيّون في البحر[١٣٩]، بينما يخلص الإسرائيليّون. هنا يخلص الوثنيّون ويُلقى العبرانيّ يونان في البحر. هناك يخاف الإسرائيليّون الربّ[١٤٠]، بينما هنا يخاف الوثنيّون الربّ.

١٦- " فخاف الرجال الربّ خوفًا عظيمًا وذبحوا ذبيحة للربّ ونذروا نذورًا"

تتّفق هذه الآية مع الآية (١٠)، مع إضافة كلمة واحدة " يهوه/ الربّ ". لم

---

١٣٥. حز ٢٧/٢٧.

136. SAN GIROLAMO, *Commentaire sur Jonas*: SCh: 323,I, 4,1.

١٣٧. خر ١٤/١٦، ٢١، ٢٩.
١٣٨. خر ١٤/٥-٣١.
١٣٩. خر ١٤/٢٨.
١٤٠. خر ١٤/٣١.

يعد يكرم الملاّحون الوثنيّون آلهتهم " إلوهيم "، بل أخذوا يكرمون" يهوه"، فأكرموه مرّتين على مرحلتين:

الأولى: من خلال تقديم الذبائح، يستخدم التعبير ذبيحة حمد وشكر من أجل خير حصلوا عليه. يتطلّب هذا عمليّة ذبح، كتعبير عن العرفان بالجميل لله من خلال أكل لحوم الحيوانات المقدّمة. كانت هذه الذبائح مقصورة على الإسرائيليّين فقط، هكذا يشير المؤلف إلى توبة الوثنيّين وعودتهم إلى إله يونان.
الثانية: قدّموا نذورًا على مثال الإسرائيليّين الصالحين.

نستنتج من هذا أنّ يونان كان وسيلة، رغما عنه، في يد الربّ، ليحمل الوثنيّين إلى " يهوه " الإله الحقيقيّ.

إنّ ما رفضه يونان، غير مطيع، وهو الذهاب إلى نينوى الوثنيّة، قد أتمّه " يهوه " من خلاله مع الوثنيّين البحّارة. (من عرف فكر الربّ وكان له مشيرًا). (أين أهرب من روحك ... ما رفضه آدم أتمّه المسيح).

التـــأمّـــل

أمام هذه المرحلة في سفر يونان، لَهي مناسبة جيّدة، لِفتح، صفحات، لم نتعوّد أن نفتحها من قبل في حياتنا المسيحيّة:

١- دعوة إلى التعبير عن الذات

اوّلاً: وقبل أيّ شيء آخر، نحن مدعوّون إلى الشرح والوضوح. لم يرتَح الملاّحون أمام صمت يونان ونومه الثقيل. رفض رفقاء يونان الصمت الذي تعامل به مع الله، فقالوا له: " اشرح لنا، فسّر لنا؟". قبول المسيرة والرفقة مع آخر/ آخرين في الحياة وفي الإيمان، يتطلّب استعداداً، وسخاءً، للخروج إلى النور، للوضوح (أن نخرج كلّ شيء إلى النور)، وأن نعبّر عن ذواتنا بوضوح. في الحقيقة، نحن لم نخلق لنحيا معزولين، منفردين، منفصلين: " الله لم يشأ أن يقدّس الناس ويخلّصهم أفرادًا، دون ارتباط فيما بينهم، بل شاء أن يجعلهم شعبًا يعترف به في الحقّ ويخدمه بالقداسة " (نور الأمم رقم ٩). يجب أن نعي دائمًا لمن نحن، وبمَن نؤمن ونعلن إيماننا:" وكونوا في كلِّ حين مُستعدِّين للرَّدِّ لمَن يطلب منكم دليلاً على الرَّجاء الذي فيكم "[١٤١] ما نحياه ونختبره يمكنه أن يصير صخرة وأساسا لبناء حياة الآخرين والعكس صحيح. ليس لنا الحقّ في رفض الحياة معا، ينطبق هذا أيضًا على مستوى الإيمان الحيّ. إيماني يحتاج دائمًا لإيمانك، والعكس صحيح. الواجب الأساسيّ لنا جميعًا هو " فلنطلب ما فيه السَّلام والبنيان المشترك "[١٤٢]، بمعنى كلّ منّا مسئول عن بناء الآخر. حتّى يتأتّى ذلك، لا يجب أن ترجع الكلمة فارغة بل ممتلئة بالمعاني والحياة: "أتذوّق الكلمات التي تحمل في ذاتها ثقل براعم الحياة الكامنة في الرحم، بينما أقذف خارجًا الكلمات الفارغة"[١٤٣]. " فقط نقتني الكلمات التي تحيي، والباقي مجرّد ثرثرة"[١٤٤].

---

١٤١. ١بط٣/١٥.
١٤٢. رو ١٤/١٩؛ ١٥/٢.

143. A. DE SAINT- EXUPÉRY , *Citadelle*, Gallimard, Paris 1972, 251.
144. Alessandro PRONZATO, in *Pane per la Domenica. Commento ai Vangeli ciclo B*, Gribaudi, Torino 1985 ,28.

٢- قبول المحاكاة

ثانيا : أن أحكي للآخر الرفيق ما عشته وأحياه وأفكّر فيه، إنّ الحياة محاكاة، ليتنا نُدرك سّر ونعمة التحاكي. لأوّل مرّة، لا يرفض يونان الدعوة، ولا يجاوب بالصمت، وافق أن يحكي ذاته، أن يخرج من انغلاقه وعزلته، أن يقبل المخاطرة، عندما يُعرّي ذاته. أن نحكي ذاتنا، أن نعلن ذاتنا هي عمليّة في غاية الدقّة والخطورة، بالمعنى المزدوج للكلمة. فمن ناحية، إنّ الحديث عن ذواتنا، يضعنا في أيدي الآخرين (تحت رحمتهم)، مع المخاطرة، أن يفهمنا الآخر خطأ؛ أو أسوأ من ذلك: أن يستخدمني الآخرون ويتلاعبوا بي (تصبح سيرتي علي كلّ لسان). في كلّ مرّة تأخذ كلماتنا جسدًا أو حيّزا واقعيّا (ضعيفًا)، فيحمل هذا في طيّاته إمكانيّة التلاعب بهذه الكلمات المتجسّدة. فالإنجيل ذاته يحمل في طيّاته خطر التفسيرات المتعدّدة، منها الجيّدة ومنها الخاطئة: " في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله... الكلمة هو النور الحقّ، جاء إلى العالم ليُنير كلّ إنسان.... والكلمة صار بشرًا وعاش بيننا..."[١٤٥] . من جهة أخرى: تحمل المحاكاة في ذاتها فرصة عظيمة. أوّلاً تحمل محاولتنا المستمرّة أن نعبّر عن ذاتنا في طيّاتها نموّا، يصل بنا إلى وعي أفضل لما نحياه (أعطي كلّ شيء في حياتي اسما): " أنا لا أعرف معنى ما أقوله إلاّ فقط عندما أقوله"[١٤٦]، صدى صوتي يتردّد داخلي فأسمعه. نحتاج أن نترجم حياتنا إلى كلمات، أو بمعنى آخر، إيضاح وشرح حياتنا من خلال الكلمة، هذا يجعلنا نقترب بطريقة أكثر وعيًا من حياتنا. أيضًا، المحاكاة: تعني إرساء جسر من التواصل والحوار مع الآخرين، فـ" عظمة الإنسان أن يصير جسرًا وليس هدفًا" (نيتشه)[١٤٧].

أن نقبل الحوار، هذه الكلمة بين اثنين، تعطي المغامرة الإنسانيّة معنى. أخيرًا، إنّ ما قلناه عن الجسر، الذي يعبر من خلاله آخرون يدخلون حياتي، يقدّمون في الوقت نفسه كلمة شفاء ومداواة لجراحاتنا ومشاعرنا.

---

١٤٥. يو ١/١-١٤.

146. Jean GUITTON, *Lettres ouvertes*, Payot & Rivages, Paris 1993, 35.
147. F. NIETZSCHE, *così parlò Zarathustra*, Adelphi, Milano 1976, I, 6.

٣- الحياة فعل إيمان

بعد أن قبل يونان الدخول في لعبة الحوار، لم يخف إعلان وكشف هُويّته، متضمّنًا ذلك إعلان إيمانه الصالح، هو عبرانيّ، يعبد الله، خالق الكلّ. يمكننا أن نتعرّف من خلال ما سبق على بعض الملامح الايجابيّة في شخصيّته : يونان شخص لا يختبئ أو يتوارى، لا يضع رأسه في الرمال فلا يراه أحد. ظهر على السطح مباشرة ثقافته وعبادته بصورة علنيّة. يظهر يونان في إعلانه شجاعة لا عيب فيها. لم يخف الكشف عن ذاته بوضوح، علانية، فقط أمام ووسط جماعة لا تتّفق معه في الفكر والإيمان (ثقافيّا/ يختلف معهم دينيّا). ليست المشكلة هذا الإعلان، بل هي على مستوى آخر، حيث لا تتماشى حياته مع إيمانه المعلن، أي إنّ سلوكه لا يتّفق مع معتقداته، واختياراته لا تتلاقى مطلقًا مع تأكيداته الإيمانيّة. هناك هوّة شاسعة وانفصال تامّ بين الحياة والإيمان. هذه هي خبرة عديدين منّا اليوم. ليس سهلاً أن نكون أمناء للربّ، حيث تربط الأمانة بين القلب واللسان، بين الباطن والخارج. معظم اختياراتنا غير مستنيرة بالكلمة. في الواقع، لا يحتلّ الربّ المكانة الأوّليّة في حياتنا. بالتالي، تصبح صلاتنا أكثر سهولة من ممارسة التوبة، الصلاة نتلوها بسهولة، هكذا يقول القدّيس إغناطيوس الأنطاكيّ، إلاّ أنّ الحياة المسيحيّة لا تُتلى: " لا يكفي أن نُدعى فقط مسيحيّين، بالحري يجب أن نكون مسيحيّين حقّا" (الرسالة إلى مغنسيا). فليس المطلوب أن نظهر خارجيّا مسيحيّين، إنّما أن نكون حقّا. المظهر الخارجي ترجمة أصليّة لما هو باطنيّ داخليّ. إنّ الخطر الوحيد ألاّ نكون مسيحيّين، فإن كان أحد مسيحيّا، سابقًا أو لاحقًا، يظهر ذلك تلقائيّا[١٤٨].

٤- تفعيل المسئوليّة الشخصيّة

من الواجب أن نعترف بيونان: كفءٌ بمَن يؤمن به. ربّما تكون دوافعه غير نقيّة أو صافية تمامًا، إلاّ أنّه من المؤكّد أقلّه أمام الملاحين، ليس كافرًا، لم يهرب أمام مسئوليّته، بل يتحمّلها كاملة، بأسلوبين:

148. Don MILANI, *Lettere di Don Lorenzo Milani, Priore di Barbiani*, Mondadori, Milano 1988,31.

الأول: يعترف بخطيئته كسبب رئيسيّ لما يحدث لهم،بسبب تمرّده ورفضه للرسالة التي أوكلها الله له، وعناده بمحاولة هروبه إلى ترشيش، والنوّة التي كادت أن تهلكهم.

الثاني: يقدّم نفسه كحلّ تجاه ما يحدث. يشعر يونان، بلا شكّ، أنّه مصدر هذه المصيبة التي لحقت بهم، طلب أن يلقى به في البحر. هذا هو الحلّ الأمثل، بالنسبة له. يصف النصّ الأحداث قائلاً: عاد البحر إلى هدوئه، انتهت النوّة حالاً بمجرّد أن ابتلع يونان. يصعب علينا تطبيق هذا النصّ في حياتنا اليوميّة، عندما يكلّفنا ذلك الاعتراف بمسئوليّتنا/ بأخطائنا!. في الحقيقة، نحن مستعدّون دائمًا، بقرع صدور الآخرين عندما يخطئون. ولا نرى بسهولة أخطاءنا ومسئوليّتنا. فإذا اتّجهت الأوضاع أو عالمنا وأعمالنا وعلاقاتنا إلى الأسوأ، فالأوضاع والعالم هي السبب، السبب السيّئ ولست أنا. إذا واجهت بلدي أو جماعتي أو كنيستي مشاكل في الحياة الجماعيّة، فالآخرون هم المسئولون وغير أكفاء في واجباتهم والتزاماتهم نحوي، هم معدومو الأمانة. إذا رعيّتي مثلاً ترفض قبول الغرباء، فلأنّها لا تقبل المختلف عنها. الكلّ صار مزيّفًا، مُقنّعًا خلف قناع الاعتراض (نقص القداسة)، " لست قدّيسًا، إلاّ أنّ الآخرين هم كذا وكذا...". إلقاء المسئوليّة على الآخرين، يصل بنا إلى خطر الاعتقاد بأنّنا معصومون من الخطأ أي بلا خطيئة. يقودنا عدم النظر إلى ذواتنا (العمى الذاتي)، تدريجيًا، إلى غلق قلوبنا تجاه الآخرين (عمى العلاقات).

إلاّ أنّ هناك بعدا آخر نتساءل عنه، ألا وهو(الوجه الآخَر للعملة): تحمُّل مسئوليّتنا: أن نهب حياتنا من أجل الآخرين. يتحوّل يونان هنا من هارب إلى مخلّص. في اللحظة التي يعلن متحمّلاً مسئوليّته، يهب حياته منقذًا مرافقيه من الموت. هذه النقطة لهي في غاية الأهمّيّة، إذ يحضرنا هنا مثال المسيح ومنطق الإنجيل: يهب حياته فداءً ليحيا الآخرين: " جئت لتكون لهم الحياة بل ملء الحياة"[١٤٩]. في الواقع، ليس هذا سهلاً، إلاّ أنّه بالتأكيد هذا هو الإنسان

---

١٤٩. يو ١٠/١٠.

المسيحيّ. لا شكّ، أن ألقي بذاتي في البحر، التضحية من أجل الآخرين، هو دائمًا فعل خصب: "كلّ مرّة يبذل شخص ما ذاته لأجل آخر، هو يخلّص"[١٥٠] ليس هو فقط من أجل الآخرين، بل لنا أيضًا. المقياس "من وهب ذاته يخلص"[١٥١].

٥- خطيئتنا هي الدنس/ التلويث

هناك بعد أخير نشير إليه، في هذا النصّ، ألا وهو: عدم طاعة يونان، والذي يضع كلّ الخليقة: البشر وعناصر الطبيعة، الرياح، الأمطار، البحّار، النوّات، في حالة هياج وتمرّد. لم تنحصر خطيئة يونان في حياته الشخصيّة فقط، بل تشمل أبعادها الكون كلّه، هذا ما يطلق عليه البعد الاجتماعيّ للخطيئة. تلك هي الحقيقة التي يعلنها علماء البيئة كلّ يوم: أيّ سلوك غير بيئيّ، ضارّ للبيئة يؤثّر تأثيرًا سلبيًا، ويؤدّي إلى دمار الحياة على الأرض (التغييرات المناخيّة وثقب الأوزون). ليس هذا شيئًا جيّدًا في النطاق الكنسيّ، حيث تذكّرنا الكنيسة دائمًا بأنّ هناك تضامنًا في الخير والشرّ. فيقود الخير العالم إلى الرفاهية الحقيقيّة ويزهر حياة الكنيسة، أمّا الشرّ يلد هلاكًا للجميع. "كلّ ما يخرج من أعماقنا له تأثير مباشر على الوضع الخارجيّ"[١٥٢]. من هنا، تنطلق الدعوة: من الأفضل أن يتحمّل كلّ فرد مسئوليّته: أنا مسئول عن الخير ومسئول عن الشرّ المحيط بي، بالكنيسة، والعالم. إنّ كلماتي وأفعالي ليست حياديّة، لها تأثير على الجميع وعلى كلّ شيء: الخير والشرّ معًا. لا يكفي أنّ ما يرى فقط، هو ما يلوث البيئة التي نحيا فيها. أخطاؤنا المستترة تلوّث الهواء الذي يستنشقه الآخرون[١٥٣] (من الخطايا المستترة يا ربّ نجّني). في النهاية، الشرّ لا يدمّرنا نحن فقط، بل العالم أجمع.

150. A. CHIEREGATTI, *Giona. Lettura sprituale*, EDB, Bologna 1992,31.

١٥١. مت ١٠/٣٩؛ ٢٠/٢٨؛ مر ٨/٣٥؛ لو ٩/٢٤؛ ١٧/٣٣.

152. A. J. HESCHEL, *L'uomo alla ricerca di Dio*, Qiqajon, Bose 1995,9.

153. G. BERNANOS, *Diario di un curato di campagna*, Mondadori, Milano 1995, 160.

"مناجاة"

يا ربّ، شكرًا على هذه الكلمة.

أيضًا مرّة أخرى،

تتطابق ملابس يونان مع ملابسنا،

يبدو أنّها فُصّلتْ على مقاسنا.

نحتاج نحن أيضًا أن " نفهم ذواتنا"،

ألاّ نخفي ما نحن عليه.

نحتاج نحن أيضًا،

أن يصير إيماننا " رواية "،

خبزا نتقاسمه مع الإخوة والأخوات.

نحتاج قبل أيّ شيء آخر، أن نكون مثابرين،

لتكون حياتنا قريبة

من شفاهنا... أقوالنا،

نريد قدرًا كافيًا من الشجاعة

للاعتراف بمسئوليّتنا

وأن نقبل توابعها.

نحن جميعًا مسئولون

عن كلّ شيء، وعن الجميع،

عن الخير والشرّ أيضًا.

يا ربّ، لا تسمح،

أن ننحصر على مستوى الكلام المعسول فقط.

فقط، من يُخلِّصْ، يَخلُص.

رابح الحياة هو الذي يقدّمها بسخاء لأجل الآخرين.

نعرف ذلك، أيضًا، فساعدنا أن نحياه. آمين.

تساؤلات

١.هل أنا مستعدّ أن أتقاسم حياتي مع الآخرين؟ أن أكون واعيًا بإيماني ومتطلّباته، أم أعتقد بأنّ هذه الأشياء لا يجب أن يتدخّل فيها الآخرون؟

٢. هل أدرك عندما أروي ما أحياه، أنّي أطرح مجدّدا ما أحياه، وأهب الآخرين الفرصة لمساعدتي؟

٣. ما المسافة بين ما أؤمن به وما أحياه كلّ يوم! هل النصائح التي أعطيها للآخرين أعيشها أنا أوّلاً؟

٤. هل لديّ التجربة بأن ألقي المسئوليّة على الآخرين، بسبب الأشياء الراكدة في حياتي (السلبيات) وفي جماعتي؛ في رعيّتي، ووطني. كم كنت مستعدًّا للصلاة، حتّى تصبح الأوضاع أفضل ممّا عليه؟

٥. هل أنتبه إلى نوعيّة حياتي وعلاقتها بالصلاة؟ هل أعي بأنّ الخير والشرّ الذين أفعلهما في العالم يساعدان على تغيير العالم نحو الفضل أو الأسوء؟

الفصل السادس

صـــــلاة الحيـــــاة

(يون ٢/١-١١)

"مناجاة"

يا ربّ، أنت تدهشنا وتفاجئنا دائمًا.

نحن أيضا، كالعبرانيّين في الصحراء،

تهبنا كلّ يوم نصيبنا من الكلمة،

وهو نصيب وفير.

يكفي عبورنا المستمرّ،

يكفي ليعيد لنا النشاط في مسيرتنا نحوك.

لا أخفي عليك،

نحن مرهقون من هذه الرحلة.

في الوقت نفسه، منتبهون ألاّ نفقد شيئًا،

من جهدنا المتجدّد، والذي نحصده يوميًّا.

يا ربّ، أنت تدهشنا وتفاجئنا، كل يوم،

بسخاءٍ إلهيّ، تعضد أعضاءنا، وتقوّي قلوبنا وعزائمنا،

أنر عيوننا: لا تسمح، يا ربّ، أن نخور ونضعف في رحلة حياتنا.

يا ربّ، اسمح أن نتقاسم ما نستقبله عطيّة منك.

يارب، استمرّ أن تدهشنا،

اسكب علينا غنى وجمال روعة كلمتك.

آمين.

نصّ يونان ٢/١ -١١

فصلّى يونان، إلى الرَبِّ إلهه من جوف الحوت وقال:

" يا ربُّ، إليك صرخت فاستجب لي في ضيقي.

يا ربُّ، من جوف الحوت أستغيث فسمعت صوتي.

طرحتني في الأعماق، في قلب هذه البحار. المياه الغزيرة تحيط بي.

يا ربُّ، تيّاراتك وأمواجك تعبر عليَّ.

طُرِدْتُ من أمام عينيك، فكيف أرى بعد هيكلك المقدّس.

تكتنفني المياه حتّى الأنف والغمر يحيط بي، ويغطّي عشب البحر رأسي.

نزلت إلى أسس الجبال، إلى أرض أبوابها أُغلِقت عليَّ إلى الأبد.

لكنَّك أيُّها الرّبُّ إلهي سترفع حياتي من الهاوية.

وعندما تعود إليَّ نفسي، أتذكّرك أيُّها الرّبّ، فتصل إليك صلاتي في هيكلك المقدّس. يُراعون آلهة السُّوء ويُهملون رحمتك عليهم.

وأنا بصوت الحمد أُقرِّب لك الذَّبائح، وأوفي بما نذرتُه لك.

يا ربُّ، منك خلاصي".

فأمر الرّبّ الحوت، فقذف يونان إلى البر.

هنا يتغيّر المشهد تمامًا. من سطح السفينة إلى أعماق البحر. فإلى هذه اللحظة الأشخاص هم: الله، يونان، الملاّحون. وهنا يختفي من المشهد الملاحون، ويدخل بدلاً منهم البحر، والحوت.

١- " وأمّا الربّ فأعدّ حوتًا عظيمًا لابتلاع يونان، فكان يونان في جوف الحوت ثلاثة أيّام وثلاث ليالٍ"

يظهر **الله**، من جديد، ضابط الكل، يطيعه الجميع: أوّلا الرياح والبحر، والآن الحوت. في الواقع، استخدم الكاتب تعبير " أعدَّ " للدلالة على عناية الله الفائقة بيونان الإنسان. يقدّم الله حوتًا لخير يونان، نتذكّر عناية الله بإيليا النبيّ حيث أطعمه عن طريق الغربان[١٥٤]. وإن كان هناك اختلاف، فتساعد الغربان أو الطيور نبيًّا من أجل رسالة، أما هنا يبتلع حوت إنسانا هاربًا. ماذا يمكننا أن نقول عن هذا الحوت العجيب، يمكننا ترجمة التعبير العبريّ "dag gadol" أو اليونانيّ "mega ketos" إلى العربيّة "حوت " أو سمكة ضخمة، أو وحش.

"يؤكد المعلم " تارفون" Tarfon ، في التقليد الرابّينيّ، أنّ الحوت أخذ رسالته من الله منذ أيّام الخلق الستّة، ليبتلع يونان. يشير هذا التقليد من بعيد إلى البعد المسيانيّ: لعب الحوت دورًا في حفظ يونان من أجل مستقبل العالم. فالحوت، منذ بدء الخليقة، في مخطط الله، له رسالة مسيانيّة لخلاص العالم"[١٥٥].

يظهر مرّة ثانية التناقض الساخر، فبينما يرفض يونان الذهاب إلى نينوى المدينة العظمى، وينتهي به الحال للدخول إلى جوف الحوت! يطيع الحوت ويؤدّي الرسالة التي ائتمنه الله عليها.

"فكان يونان في جوف الحوت ثلاثة أيّام وثلاث ليال"

أمام هذا الوضع العجيب، كان من المفترض هلاك يونان السريع والمحتّم ، إلاّ أنّ الكاتب يقدّم لنا عكس ذلك، على الأقل لبضعة أيّام. يرى بعض المفسرين توازيًا بين هذا النصّ ونصّ إرميا النبيّ [١٥٦]، واصفًا ملك بابل كأنّه وحش ضخم، ابتلع إسرائيل. كذلك نصّ أشعياء النبيّ[١٥٧] ، يقدّم مضطهدي إسرائيل كوحش بحريّ. ثمّ يظهر الرقْم ثلاثة، وهو رقم كتابيّ ذو دلالة رمزيّة، حيث يستخدمه يسوع ليعبّرعن الزمن الذي يفصل بين موته وقيامته.

---

١٥٤. ١مل ١٧/٦.

155. R. REICHELBERG, L'aventure prophétique. Jonas, menteur de vèrité, Albin Michel, Paris 1995,113.

١٥٦. إر ٥١/٣٤.
١٥٧. أش ٢٧/١.

٢- " صلّى يونان إلى الربّ إلهه من جوف الحوت "

يأخذ النصّ العبريّ، هنا، أبعادًا متنوّعة. يتحوّل الحوت من صيغة المذكر(dag) إلى صيغة المؤنث(daga)، كيف حدث ذلك؟ ربّما رغبة الكاتب أن يذكّرنا بالمزمور الذي سوف يتلوه علينا، إذا صحّ أن ندعوه كذلك. في الآية الثالثة يحدّثنا عن الهاوية أو الجحيم " شيئول sheol "، المكان أو الحالة التي تشير إلى البعد التامّ عن الله. يشبه هذا المكان في النصوص الرابّينيّة: بالوحوش الكاسرة في صيغة المؤنث، والمستعدّة لابتلاع ضحاياها[١٥٨]. مصدر التعبير "شيئول" الفعل "يسأل أو يطلب" فيشير إلى الاحتياج أو العطش الشديد. نجد هذا البعد واضحًا في نصوص العهد القديم[١٥٩].

هناك تفسير لنصّ رابّينيّ يشبّه فيه الحوت بالمجمع (السيناجوج)[١٦٠]. بمجرّد أن دخل يونان جوف الحوت (المجمع) بدأ في الصلاة. هنا يبزغ ويظهر من جديد الله الحاضر، والذي يهرب منه يونان بدقّة فائقة.

التعبير نفسه " يصلّي " يحمل معنى مزدوجا. الأوّل: يشير إلى الشكر لأجل الإنقاذ من مصيبة، والثاني: يدعو الله إلى التدخّل من أجل صعوبة يمرّ بها. في الواقع، يحيا يونان هذين البعدين ويختبرهما.

٣- " وقال: يا ربّ، إليك صرخت فاستجب لي، في ضيقي من جوف الموت أستغيث، فسمعت يا ربّ صوتي ".

يبدأ هنا ما نطلق عليه مزمور يونان : صلاة شكر كتابيّة. إنّه مزمور شكر للخلاص من خطر، ممّا يبدو أنّه خارج موقعه، فلا يزال يونان في جوف الحوت ولم يخلص بعد (هذه مشكلة تعود إلى أصالة النصّ وترتيبه داخل سفر يونان). فلنقرأه ببساطة كمزمور "شكر يسبق الحصول على نعمة".

---

١٥٨. ام ١/١٢؛ أش ٥/١٤؛ حب ٥/٢.
١٥٩. ام ٢٧/٢٠؛ ٣٠/١٥-١٦.

160. Pirkei di Rabbi Eliezer, cit. in REICHELBERG, *L'aventure prophétique. Jonas, menteur de vèrité*,114.

" إليك يا ربّ صرخت فاستجب لي في ضيقي "

يتوجّه المصلّي إلى الله، في خضمّ المشكلة والألم الذي يحوط به من كلّ جانب، وذلك بأسلوب شائع مشترك مع مزامير عديدة:

" في ضيقي دعوتُ الرّبّ، وإلى إلهي صرخت، فسمع من هيكله صوتي وبلغ صراخي أذنيه "[161].

" كنت أقول في ابتعادي عنك: " انقطعت من أمام عينيك ". لكنّك سمعتَ صوت تضرُّعي عندما صرخت إليك "[162]؛ " من الضيق دعوت الرّبّ فاستجاب وأفرج عنّي "[163]؛ " في ضيقي صرخت إلى الرّبّ، فاستجاب الرّبّ لي "[164].

تظهر هذه الشواهد حقيقة في غاية الأهمّيّة والبساطة لمضمون الصلاة ألا وهي: **الثقة في أنّ صلاة المتألّم مسموعة من الله ولا تظلّ دون استجابة**. نلاحظ الترابط الواضح مع مز ١٢٠/١ " في ضيقي صرخت إلى الربّ فاستجاب لي "، حيث يتوجّه المصلّي مباشرة إلى " الربّ "، بينما يونان في هذا النصّ، ونصوص أخرى عديدة[165]، تقريبًا " الأنا " هي دائمًا في المركز، فبالرغم من الألم والاضطراب تظلّ "الأنا" في مركز الحدث تمامًا.

" من جوف الموت أستغيث فسمعت يا ربّ صوتي "

يتكرّر ويتأكّد هنا المفهوم نفسه ، حاملًا معاني متنوّعة: الجحيم، الشيئول sheol، مكان الموت[166]، " دعوت باسمك يا رب من أعماق الجبّ "[167].

في الوقت نفسه حسب شهادة التقليد، لا يوجد مكان لله في الجحيم " أللأموات تصنع العجائب؟ أم يقوم الأشباح ليحمدوك، أفي القبر يحدَّث برحمتك، وفي أرض الهلاك بأمانتك؟ وفي أرض النِّسيان عدلك؟ "[168]؛ " ففي الموت لا ذكر لك، وفي القبر من يحمدك؟ "[169].

---

١٦١. مز ١٨/٧.
١٦٢. مز ٣١/٢٣.
١٦٣. مز ١١٨/٥.
١٦٤. مز ١٢٠/١.
١٦٥. يون ٢/٥،٩.
١٦٦. مز ١٨/٦؛ أش ٢٨/١٥،١٨؛ ٣٨/١٨.
١٦٧. مرا ٣/٥٥.
١٦٨. مز ٨٨/١١-١٣.
١٦٩. مز ٦/٦.

هذا يجعلنا نفهم منذ البداية لماذا اختار يونان الموت/ الجحيم أمام الملاّحيين: حيث لا يوجد الله، بهذا الأسلوب من الهرب قد يصل إلى هدفه المنشود. إلاّ أنّ الصلاة تحمل يونان إلى مستوى تضامنيّ قويّ، حيث لا شيء يهرب من يدي الله[١٧٠].

٤- " طرحتني في الأعماق، في قلب هذه البحار. المياه الغزيرة تحيط بي، تيّاراتك وأمواجك تعبر يا ربّ عليّ":

يعترف يونان، صادقًا، في صلاته، أنّ كلّ ما يحدث هو من عمل الربّ وصنعه وتحت سيطرته. فإن كان اختياره للموت هو أقصى تعبير عن الهروب كما كان يعتقد، إلاّ أنّه لا شيء يهرب من يدي **الله**. كيف لا نتذكّر مزمور ٤٢ الذي يعبّر عن عطش المؤمن إلى الله، والألم الذي ينتابه نتيجة هذا العطش: " نفسي تكتئب فأذكرك من حرمون وأرض الأردن ومن مصعر، الجبل الصّغير. الغمر يشكو الغمر سقوط أمطارك، أمواجك وتيّاراتك عبرت عليّ"[١٧١].

٥- " طردت من أمام عينك فكيف أرى بعد هيكلك المقدّس"

قدّمت النصوص السابقة يونان ليس منبوذا من الله، بل إنسانًا هاربًا من الله، بينما تقدّم هذه الآية صورة مختلفة ليونان. نحاول، على أيّة حال، قراءة الآية وتحليلها.

تتباين مشاعر يونان في هذه الخبرة. حيث لا يختبر شعور الإنسان المتروك فقط، بل المطرود. " بعيد عن عينك " لا تعني البعيد عن نظر الآخر فقط (المسافة المكانيّة)، إنّما أساسًا البعيد عن اهتمامه وعنايته، عن حبّ الآخر له؛ صدق المثل القائل: " البعيد عن العين بعيد عن القلب". هذا ما تقدّمه بعض النصوص الكتابيّة: " عينا الرّبّ على الصّدّيقين، وأذناه تسمعان نداءهم"[١٧٢]؛ "أعلّمك وأريك الطّريق، وأرشدك وعيني عليك "[١٧٣].

١٧٠. مز ١٣٩؛ هو ١٣/ ١٤ ؛ عا ٩/ ٢.
١٧١. مز ٤٢/ ٧-٨؛ ٦٩/ ٢-٣، ١٦؛ ١٠٢/ ١١.
١٧٢. مز ٣٤/ ١٦.
١٧٣. مز ٣٢/ ٨. فيما يخصّ موضوع النظر و العين في العلاقة بين الله و الإنسان راجع مز ٣١/ ٢٣؛ ١٢٣/ ١؛ إر ٣٢/ ١٩؛ حز ٥/ ١١.

يتبع ذلك مباشرة، الثقة في رؤية الربّ، من جديد، في مكان حضور الله الفائق، أي في الهيكل المقدّس[١٧٤].

٦- "تكتنفني المياه إلى الأنف والغمر يحيط بي، وعشب البحر يغطّي رأسي"

هنا يتغيّر الاهتمام من شخص يونان إلى البحر وعناصره، كما حدث في الآية الرابعة، حيث يستمرّ في وصف حالة اليأس والألم الذي يمرّ به. أيضًا فإنّ الشواهد الكتابيّة لا تزال حاضرة[١٧٥].

٧- " نزلت إلى أسس الجبال، إلى أرض أبوابها انغلقت عليّ يا ربّ إلى الأبد. لكنّك أيّها الرّبّ إلهي سترفع حياتي من الهاوية"

يصل يونان إلى عمق خبرته في الصلاة، بكل معانيها، يلمس "عمق الأعماق"؛ "أسّس الجبال" والتي تقودنا بدورها إلى أعماق البحار. حسب المعتقد العبرانيّ: ترتفع الأرض على أعمدة وسط البحار[١٧٦]. بينما يقدّم النصّ اليونانيّ، بطريقة أكثر قبولاً فيقول: " نزلتُ إلى أرض الموت وأبوابها انغلقت عليّ يا رب "، وهنا النصّ يختمها بأسلوب دراميّ " إلى الأبد".

تتغيّر النغمة، بطريقة فجائيّة، ينفتح طريق الرجاء " لكنَّك أيّها الرّبّ إلهي سترفع حياتي من الهاوية". لا يترك الربّ أبدًا خواصه، والمؤمن يعرف ذلك جيّدًا[١٧٧].

٨- " وعندما تعود إليَّ نفسي أتذكَّرك أيُّها الرّبّ فتصل إليك صلاتي في هيكلك المقدَّس"

هكذا كما في الآية السابقة، يظهر مدى احتياج يونان إلى خبرة لمس الأعماق (الموت) حتّى يصعد من جديد. احتاج يونان في خبرته ألاّ يعتمد على أحد حتّى يعود للاعتماد على الله فقط، احتاج أن يأخذ مسافة حتّى يشعر بالرغبة الحارّة

١٧٤. مز ٥/٨:١١/٤:١٣٨/٢؛ مي ١/٢.
١٧٥. مز ١٨/٥:٦٩/٢-٣:١١٦/٣.
١٧٦. أي ٩/٦:٢٦/١١؛ مز ٧٥/٤...إلخ.
١٧٧. مز ٣٠/٣-٤:١٦/١٠:١٠٣/٤، أي ٣٣/١٨.

والحثيثة إلى الهيكل حيث يوجد الله، يسمع ويصغى إلى صلا ته. إنّه سلوك معتاد في الكتاب المقدّس، يكفى أن نتذكّر المزامير: " في ضيقي دعوت الرّبّ، وإلى إلهي صرخت، فسمع من هيكله صوتي وبلغ صراخي أذنيه "[١٧٨].

٩- " يراعون آلهة السّوء ويهملون رحمتك عليهم "

يونان والذي لم يقدّم أيّ دليل لإيمان قويّ تجاه "يهوه"، محتذيًا في تصرّفه بسلوك البحّارة الوثنيّين قائلا: فليكفّ عبدة الأوثان عن عبادة أصنامهم الباطلة!. كما اختبر الملاّحون استجابة صلاتهم عندما دعوا " يهوه "، فخلّصهم من الهلاك، هكذا اختبر يونان أخيرًا[١٧٩].

١٠- " وأنا بصوت الحمد أقرّب لك الذّبائح وأوفي بما نذرته لك. فمنك يا ربّ خلاصي"

يختم الإصحاحان الأوّل والثاني بالوعد بتقديم الذبائح والتقادم والنذور. إنّه أسلوب معتاد للشكر، لكلّ من يحصل على نعمة، أو خلاص من هلاك[١٨٠]. ففي الإصحاح الأوّل يعد الملاّحون بالتقادم، بينما هنا يعد يونان النبيّ بذلك. كلاهما في أزمة، يتّجه كلّ منهما إلى " يهوه "، أوّلاً الملاّحون و ثانيًا يونان.

الوثنيّون يهزمون العبرانيّ ، هكذا يصرّح يسوع في الإنجيل: " و كثير من الأوّلين يصيرون آخرين، و من الآخرين يصيرون أوّلين "[١٨١].

ينتهي المزمور بإعلان إيمان احتفاليّ تجاه " يهوه": لا يوجد خلاص خارج الربّ[١٨٢] ، يعجز جهد سواعدنا عن تقديم الخلاص[١٨٣].

١١- " فأمر الرّبّ الحوت، فقذف يونان إلى البرّ"

إذا عدنا إلى رمز " الأسر البابليّ" يمكننا القول في هذه اللحظة بأنّ الأسر قد انتهى، تقيّأت بابل إسرائيل على اليابسة[١٨٤].

---

١٧٨. مز ١٨/ ٧: ٥/ ٨: ١٤٢/ ٢-٤: ١٤٣/ ٤-٦.
١٧٩. مز ٣١/ ٦-٧: أش ٣١/ ٧.
١٨٠. مز ٢٢/ ٢٦: ٥٠/ ١٤: ٦١/ ٩: ٦٦/ ١٣: ١٠٧/ ٢٢: ١١٦/ ١٧-١٨.
١٨١. مت ١٩/ ٣٠.
١٨٢. مز ٣/ ٩.
١٨٣. أش ٢٦/ ١٨.
١٨٤. إر ٥١/ ٤٤.

إلاّ أنّه حتّى نظلّ على مستوى الفكر اللاهوتيّ لنصّ يونان، يمكننا القول، فبعدما استخدم الكاتب وسيلتين للنقل: الأولى وهي السفينة، اختارها بمحض إرادته؛ الثانية الحوت المرسل مباشرة من **الله**، يجد يونان نفسه على اليابسة من حيث بدأ. فالتاريخ مسيرة تبدأ من جديد. يجدر بنا الإشارة هنا إلى أنّ الإصحاح الثاني بدأ بالفعل Tàsso + pros (أمر)، وينتهي هذا الفصل أيضا بالفعل بنفسه، وكأنّه يشير إلى تاريخ وقصّة الحوت هي بفعل **الله** لأجل خير يونان وصالحه.

التــــأمّـــــل

يساعدنا هذا النصّ على التعمّق في علاقتنا بالله من خلال الصلاة :

١- أماكن و أزمنة الصلاة

لم يستخدم يونان الأماكن المعتادة للصلاة، لا الهيكل، ولا المجمع (السنهدريم)، و لا أماكن العبادة و الحجّ، ولا أيّ منزل. لقد دعي للصلاة على سطح سفينة، وانتهى به الحال ليصلّي في جوف الحوت. هكذا يعلّمنا يسوع المسيح بأنّ الصلاة لا تقدّر في بعدها الخارجيّ المرئيّ، بل في مضمونها: " أمّا أنت، فإذا صلّيت فادخل غرفتك و اغلق بابها وصلّ لأبيك الذي لا تراه عين، وأبوك الذي يرى في الخفية هو يكافئك"[١٨٥].

نعلم جميعًا أن يسوع المسيح لم يستبعد الصلاة الجماعيّة في أماكن محدّدة، فليس هذا ما يقصده الربّ، بالحريّ لقد دعانا الله كشعب مسيحيّ للوقوف والحضور أمامه، لذلك فالصلاة الجماعيّة هي ضرورة لا غنى عنها. ما نريد إلقاء الضوء عليه: لا توجد أعذار عن لقاء الله في الصلاة، بسبب عدم توافر الأماكن أو الأوضاع الخاصّة والمفضّلة للصلاة.

" فليست الصلاة نباتًا يولد في المساء بالهيكل، بل هي نبتة تنمو في تربة الحياة الخصبة"[١٨٦]، كثيرًا ما نصادف أشخاصًا يصلّون في الطريق، في وسائل المواصلات، دون مبالغة، يصلّون الأجبية، يقرأون الكتاب المقدّس، أو المسبحة بطرق بسيطة، يصلّون في السيّارات الخاصّة، في السفر. كم كانت هذه الخبرات دافع خصب لنا من أجل الصلاة و مراجعة الذات.

٢- أسلوب و نوعية الصلاة

كما في الصلاة العبريّة، الصلاة المسيحيّة عديدة، لمناسبات مختلفة؛ الجماعيّة منها والفرديّة، ليس المجال هنا لسرد جميعها. ما نرغبه هو التعرّف،عن قرب،

---

١٨٥. مت ٦/٦.

186. A.J. HESCHEL, *L'uomo alla ricerca di Dio*, Qiqajon, Bose 1995, 30.

على نوعين من الصلاة، مرتبطين بالنصّ الذي نتأمّله: صلاة الشكر، صلاة التضرّع .

أ. "صلاة الشكر"

يبدو أن يونان لم يعرف غير هذه الصلاة، لم تلق هذه الصلاة نجاحًا كبيرًا في حياة مسيحيّين كثيرين. كثيرًا ما تحملنا رياح الحياة نحو صلاة الطلب أكثر من صلاة الشكر، لقد تعوّدنا أن نطلب أكثر من أن نشكر! ومع ذلك يكفي أن نقف ولو لحظة ونتساءل:" على أيّ شيء يجب أن نشكر الله اليوم؟" . في هذه اللحظة، ندرك ونكتشف الأشياء الكثيرة الجميلة التي يهبها الله لنا، والتي تمرّ بنا دون أن ننتبه لها، أو اعتبارها شيئًا عابرا، أو أن يصل بنا الحدّ إلى اعتبارها واجبة في حياتنا. في الواقع، صلاة الشكر تنمي وتطوّر نوعيّة حياتنا؛ تجعلنا نعي الأشياء الجميلة المتوفّرة لدينا والتي نتمتّع بها.

ب. "صلاة التضرّع"

تحقّق صلاة الطلب أو التضرّع نجاحات كثيرة في حياتنا، خاصّة في أزمنة الأزمات أو الاحتياجات القصوى، بعد أن جرّبنا كلّ شيء ولم نفلح. فالله بالنسبة لكثير من المسيحيّين الملجأ الأخير. من السهل الحكم على هذا السلوك غير السليم نحو الله:" نحن نتذكّر الله عندما نحتاج إليه فقط "، ربّما نسمع أو نردّد هذا التعبير. في الوقت نفسه نختبر أنّ الله ليس قاسيا إلى هذا الحدّ. بل هو الأب، بكلّ معنى الكلمة، الذي ينتظر ابنة ليل نهار في مثل الأب الرحيم، وعندما يعدم كفاف الحياة، لم يلق باللوم أو العتاب عليه، بالعكس يبادر بالحبّ والحنان ، ثمّ يفيض عليه بالخيرات. في الواقع، قد تصير أزمنة الأزمات أزمنة رائعة غنيّة وعجيبة، نختبر فيها ونلمس بأيدينا أنّ الله وحده، والله فقط يستطيع أن يصنع شيئًا.

لقد شُيّد الجسر والله عبر. المهمّ أن نضع القلب وكياننا كلّه فيما نفعل. إذا التصق قلبنا بصلواتنا، سوف تصل صلاتنا إلى قلب الله.

٣- صلاتنا إلى الله الذي يخلّص

تتّسم صلاة يونان بالثقة التامّة، في أن الله يصغى دائما إلى الذين يلجئون إليه، بكلّ قلوبهم. كما أوضحنا في القراءة الربّيّة السابقة، بأنّ إلهنا ليس إلهًا أصمّ لا يكترث بخاصّته، بل هو إله يصغى بانتباه ويعتني بهم. تلك هي خبرة أحداث الخروج والمزامير والأناجيل.

هكذا يقدّم يونان في اللحظة التي يخاطب الله قائلا: "من الهاوية التي غطّتني"، فعل إيمان عن قدرة الربّ الذي يخلّصه. يعرض ذلك بطرق متنوّعة، مظهرًا ثقته بالربّ "لقد استجبت لي"؛ "سمعت يا ربّ صوتي"؛ "سترفع حياتي من الهاوية"، ويصل إلى قمّة تلك الخبرة والثقة في الربّ المخلّص قائلا: "من الربّ الخلاص".

يكتظّ زمننا بالمرضى، يرافق ذلك في الوقت نفسه بعض الشفاء. فالأمراض المستعصية تنتج أدوية أكثر فاعليّة على الشفاء. الجميع يبحثون عن الخلاص. يهرع الجميع وراء الشفاء، وكثيرون يقدّمون العلاج.

إذا استطعنا، أقلّه، نحن الذين طبع على جباهنا اسم يسوع المسيح المخلّص، العلامة الأكيدة على الشفاء والخلاص! إذا استطعنا، أقلّه، أن نصير علامة ضمان للخلاص الذي أتمّه الله فينا، والموهوب للعالم أجمع، لأنّنا جميعًا نبحث عنه ونترجاه!

إذا استطعنا أن نصرخ بفرح، نابع من القلب، قائلين: "إنّ الربّ يعتني ويهتمّ بنا ويشفي جراحنا و يداوي أمراضنا!".

نكرّر، إن لم نخرج من ذاتنا،على مثال يونان، ونصرخ بشجاعة إلى الربّ، ونكشف جراحاتنا له، لأنّه "حيث الألم هناك الطبيب" (القدّيس مارأفرام)[١٨٧]، "لا يحتاج الأصحّاء إلى طبيب، بل المرضى"[١٨٨]، كذلك تنقل مرتا خبرة قيامتها

187. SANT ÉFREM, *Agrafon del Signore*, In Diat, 17,1.

١٨٨. لو ٥/٣١.

من الحالة المريرة بسبب موت أخها لعازر عند لقائها بيسوع إلى أختها مريم قائلة " المُعلِّم هنا، وهو يطلبك"[١٨٩].

٤- المسيحيّ إنسان غير مهضوم

أخيرًا، ماذا يكشف المشهد في الآية الأخيرة: يلقي الحوت يونان على الأرض الصلبة. الحوت علامة عناية الله ليحمل يونان، الآن يتقيّأ يونان. لا يهدف النصّ إلى احتقار يونان، بل هو أسلوب أدبيّ يسمح باستمرار الحدث. يدعونا هذا المشهد، أيضًا، إلى التأمّل في حياتنا من منظور مسيحيّ.

نحن مدعوون، أيضًا، للحياة في ظروف صعبة وقاسية، مدعوون للحياة في جوف العالم.

"جوف الوحش"، "فم لأسد"، "براثن المفترس" هي صور كتابيّة تشير إلى الشرور والأشرار التي تحيط بالإنسان.

يمكننا أن نماثل ذلك مع فكر القدّيس يوحنّا حول "العالم"، الذي يجسّد حقيقة الوضع البعيد تمامًا عن الله.

عندما يصير حديثنا مقبولا، مهضوما ومنسجمًا، يوافق الرفقاء، تحت مسمّيات وأشكال متنوّعة. نسعد ونطمئن جدًا عندما يقف في صفنا مسيحيّ أو بالحري رجل دين. هذا يشرح من جهة، انفتاحنا الذاتيّ، ومن جهة أخرى، يهيّئ قبورًا ننغلق فيها.

عندما يختلف حديثنا، ولا يتّفق مع آراء الآخرين، عادّة يولد فينا شعورًا بالعنف آتيا من الذين حولنا، ولا يتّفقون معنا في الرأي. يتولّد العنف تجاه من يختلف معنا، والاستهزاء الساخر لمن يشخص نهايتنا. ننتقل، في زمن وجين، من خبرة الوجود في جوف الحوت إلى خبرة المرارة، بالقذف خارجا. ليس هذا مفاجئًا. أيضا يسوع قذف به خارج أسوار أورشليم. لا يتوقّع التلميذ الحقيقي

---

١٨٩. يو ١١/٢٨.

حياة أكثر سهولة من حياة معلّمه. الأمانة نحو المسيح تبعث فينا الفرح، الذي وهبه لنا. المسيحيّ الحقيقيّ إنسان "مختلف" أي خارج عن المألوف، وذلك عندما يأخذ المسيح بجدّيّة " بمقدار ما يعترف المسيحيّ بإيمانه، ويجاهد أن يحياه بجدّيّة، يصير إنسانًا مختلفا سواء للمؤمن وغير المؤمن"[١٩٠]. هناك سلوك وكلمات إذا تغاضينا عنها، فإنّ حياتنا كمسيحيّين تسقط كلّها. "إذا تعرّت أو أفرغت المسيحيّة– إن صحّ القول– (من عبثيّتها كما يراها العالم)، وسايرت العالم كما هو، وتيّاراته، وتماشت مع السلطة، فأيّ شيء يبقى؟ نعلم جيّدًا أن رجاحة العقل، وحسن التصرّف، والفضائل الطبيعيّة سابقة لتجسّد المسيح، وفعّالة لدى غير المسيحيّين. فماذا أضاف المسيح إذا؟ وهذا يبدو، لأوّل وهلة، عبثًا. لقد قال المسيح لنا: أحبّوا الفقراء؛ المظلومين والمسحوقين، أحبّوا أعداءكم،لا تهتمّوا بالسعي وراء السلطة، ولا المجد أو الفخر، إنّها أشياء قصيرة الأجل، غير معمّرة، لا تليق بالنفوس التي اختبرت القيامة (النفوس الخالدة)"[١٩١].

يتّضح ممّا سبق، أنّ المسيحيّ إنسان "غير مهضوم". وإذا صار غير ذلك، يجب أن نسأل أنفسنا هل أصبحت حياتنا أكثر دنيويّة: " إذا حيينا، تقريبًا، بهدوء في العالم، ربّما تصبح تلك الحالة علامة للفتور المسيحيّ"[١٩٢]، بمعنى إنسان قد قلم أظافره وأسنانه.

---

190. M. DELBRÉL, *La gioia di credere*, Gribaudi, Torino 1988, 134.

191. Ignazio SILONE, *L'avventura d'un povero cristiano*, Mondadori, Milano 1986, 177-178.

192. H. DE LUBAC, *Méditation sur L'Église*, Aubier, Paris 1952, 173.

"مناجاة"

يا ربّ، كلمتك، اليوم

تشبه عصفور الحقول

الذي يدعو المؤمنين إلى الصلاة.

يذكّرنا، اليوم، بأهمّيّة الصلاة،

يدعونا، مجدّدا، إلى الصلاة.

ربّما لن نختبر أبدًا

أن نركب السفينة

ولن يعد لنا وسيلة انتقال فائقة

مثل حوت يونان.

ربّما نحيا حياة بسيطة

طبيعيّة ومنتظمة.

يا ربّ، في هذه الحياة، تقول لنا:

بدون رباط الصلاة معك،

لن نستطيع أن نقول لك، إنّنا مسيحيّون

ونحيا مسيحيّين.

إن لم نقاوم ونحتمل العالم، الذي يقودنا إلى الضياع،

ربّما لأنّنا لم نتعلّق بك،

نحتاج إلى الشجاعة لنحيا ونعلن أنّنا مسيحيّون.

ساعدنا، يا ربّ،

أن نعلن، فيك وحدك خلاصنا.

آمين.

هل تعوّدتُ البحث دائمًا عن أعذار حتّى لا أكون أمينًا للقاء الربّ في الصلاة الشخصيّة؟

هل يعوقني، أحيانًا، دواعي الاحترام الإنسانيّ، في التعبير عن حياتي المسيحيّة؟

ما مكانة الصلاة في حياتي اليوميّة (صلاة الشكر)؟ متى أذكر الله عادة في حياتي؟

هل اختبرتُ شخصيًا الله الذي يشفي ويخلّص؟ ما انطباع الذين أخالطهم عن إلهي؟

هل أنا مجرَّب لتخفيف المسيحيّة في عقاقير تناسب الجميع، أم أحاول جاهدًا أن أكون أمينًا للمسيح وأقبله دون تجزئة؟

كيف أهضم وضعًا أو حدثًا ما، عندما أشعر أنّ الجميع وضعوني جانبًا، مقذوفًا خارجًا، أو محلّ سخرية بسبب إيماني؟

الفصل السابع

الله يثق في الإنسان

(يونان ٣/١-٣أ)

"مناجاة"

كلمتك سراج لخطواتي،

يا ربّ، كم مرّة،

صلينا هذا المزمور،

كم مرّة طلبنا نورًا،

نورك يا ربّ،

لتضيء به طريقنا،

أحيانًا الوعر،

أحيانًا المجهول.

والذي نسير فيه الآن.

تعال يا ربّ من جديد،

لتشعل مصباحنا الصغير،

خافت الإضاءة، و سريع الانطفاء.

نحن ساهرون، وفي انتظار.

ننتظرك يا ربّ.

تعال، يا ربّ، مرّة أخرى، أضيء حياتنا من جديد.

آمين .

نصّ (يون ٣/ ١-١٣)

أخيرًا قذف الحوت يونان إلى اليابسة إلى البرّ، حيث بدأ رحلته.

وكانت كلمة الرّبّ إلى يونان ثانية: " قم اذهب إلى نينوى، المدينة العظيمة، ونادِ بما أقوله لك". فقام يونان وذهب إلى نينوى كما كلّمه الرّبّ.

١- " كانت كلمة الرّبّ إلى يونان ثانية"

يبدأ التاريخ من جديد، كأنّ شيئا لم يحدث من قبل. لم ييأس الربّ من يونان، ولم يذكر أيّ إشارة لعدم طاعة يونان السابقة. تطابق هذه الآية جوهريّا الآية الأولى للسفر، مع تغيير طفيف حيث يذكر في الأولى: " ابن أميتّاي" بينما يستعيض عنها هنا بـ "مرّة ثانية ".

أ- " كلمة الرّبّ "

مرّة أخرى، نلاحظ تعبير" كلمة الرّبّ إلى يونان ...". إنّها " الكلمة " تبدأ وتقود التاريخ، وهذا ما يؤكّده سفر يونان على الدوام.

ب- " إلى يونان "

كلمة الله موجّهة إلى يونان. الله يوجّه، مجدّدا، دعوته إلى نفس الشخص. الحقيقة، بالرغم من سلوك يونان (لم يصغِ، هرب، لم يصلّ، رغب في الموت هربا، أخذ مسافة من الربّ)، الله يتوجّه إليه مرّة أخرى؛ يظلّ يونان، دائما، في موضع المخاطَب من الله. لله محاولات عديدة ليونان؛ يونان شخص موضع ثقة: مؤتمن على الكلمة، والدعوة، والرسالة. (ما موقفنا من الذين يتجاوبون ويفشلون؟).

يتّضح من هذا الموقف الإلهيّ الثابت: الله لا يهتمّ فقط بنينوى، بل أيضا بيونان شخصيّا؛ لا يهتمّ فقط بتوبة المدينة العظمى، بل أيضا بالمرسل الصغير؛ " الله يشرق شمسه على الأشرار والأبرار"[١٩٣]، على الكبير والصغير. كان في مقدور

١٩٣. مت ٥/ ٤٥.

الله أن يختار مرسلا آخر؛ أن يستخدم وسيلة اتّصال أخرى (جيّدة التوصيل). إلاّ أنّه لم يفعل ذلك، إنه إله عجيب، طرقه ليست كطرق البشر[١٩٤]، منطق الله لا يتماشى بالضرورة ومنطق البشر. إنّه إله أمين: لا يفقد من يدعوه بسهولة.

ج- " مرة ثانية "

هذه ليست ملحوظة زمنيّة تاريخيّة. إنّما لها قيمة خلاصيّة: الله لا يتعب ولا يكلّ في البحث عن يونان ولا عن نينوى. مستعدّ،على الدوام، أن يبدأ من البداية. هو إله صبور رحيم " الرّبّ حنون رحيم، بطيء عن الغضب وعظيم الرَّحمة" [١٩٥]؛ يبحث عن الخروف الضالّ؛ عن الدرهم المفقود؛ يقبل كأب رحيم ابنه الأصغر[١٩٦].

٢- " قم واذهب إلى نينوى، المدينة العظيمة وناد بما أقوله لك"

تتكرّر الكلمات نفسها الموجودة في يونان (٢/١)، دون أيّ اختلاف: الإرسال إلى نفس المدينة، كذلك المجهود والالتزام. يونان مدعوّ، مجدّدا، إلى قبول الحركة والذهاب.

" وناد بما أقوله لك "

يساعدنا بعض الكتاب على ملاحظة – الحدث– عندما يتحدّث الربّ " مرة ثانية " إلى نبيّ، فلكي يعلن شيئًا جديدً[١٩٧]. في الواقع، هناك شيء جديد في الجزء الثاني من الآية (٢).

أوّلا: يؤكّد على دعوة يونان للذهاب إلى نينوى والمناداة "إليها" وليس "ضدّها". إنّ الله الصانع خيراً للملاّحين الوثنيّين من خلال يونان، هو نفسه الصانع خيرًا من خلال يونان أيضًا لأهل نينوى، هم وثنيّون أيضًا.

ثانيًا: إذا كان مضمون الدعوة الأولى أن يعلن لأهل نينوى: " شرّهم صعد إلى الربّ "(يون ٢/١)، هنا لا توجد رسالة مباشرة واضحة. (من المفترض

---

١٩٤. أش ٥٥/٨-١١.
١٩٥. مز ١٤٥/٨.
١٩٦. لو ١٥/٣-١٩.
١٩٧. إر ١/١٣؛ ١٣/٣؛ ٣٣/١؛ حج ٢/٢٠.

أن يونـان قد تعلّم من رسالته وسط الملاحين وخلاص الله لهم، رغم هروبه/ رفضه/ طلب الموت).

في الواقع، يونـان " غارق تمامًا في كلمة الربّ"، محاط بكلمة الربّ. الإلحاح هنـا أكثر على دور يونـان المرسل وليس على مضمون الرسالة.

مطلوب من يونان، فقط، أن يكون أمينًا (بن أميتّاي) ليعلن ما يقوله الله على لسانه، وفقط ما يقوله الله: " لا تزيدوا كلمة على ما آمركم به ولا تنقصوا منه واحفظوا وصايا الرّبّ إلهكم التي أوصيكم بها"[١٩٨].

٣- " فقام يونـان وذهب إلى نينوى كما كلّمه الرّبّ "

إذا كان الله لا ينوّع كثيرًا في دعوته للأشخاص، ترى هل تغيّرت إجابة يونـان؟ هذا ما نراه.

أ- " قام يونـان وذهب"

يمكننا القول إنّ يونـان تعلّم الدرس. من المستحيل الهروب من إرادة الله. طُلب منه أن يقوم ويذهب، وها هو يقوم ويذهب. أيضًا في دعوته الأولى[١٩٩] ، نعم قام ولكن هـاربًا، ولم يذهب إلى نينوى، رافضًا أن يطيع. هنا العكس.

الذي لم يتغيّر هنا هو هدف الرسالة: تظلّ نينوى المرفوضة من العبرانيّين رمزًا للشرّ، رغم ذلك يونـان يذهب إليها.

ب- " كما كلّمه الرّبّ"

نعم يذهب – لقد فهم ذلك حـالاً– ليس عن اقتناع شخصيّ أو بسبب حماسة إرسـاليّة، إنّما يذهب باسم الكلمة فقط التي ألقاها الله له، أقلّه هذه المرّة، أخيرًا أطاع الكلمة.

---

١٩٨. تث ٤/ ٢.
١٩٩. يون ١/ ٣.

التأمّل

١- إمكانية أن نبدأ مجددا

الله لا يتعب مع الإنسان. هذا ما يرد في ذهننا للوهلة الأولى. الله يبدأ، مرّة أخرى، التاريخ من حيث انتهى. فعل ذلك كثيرًا مع شعبه المختار، ويفعله أيضًا مع يونان، وكذلك معنا.

في حياة كلّ واحد منّا لحظات، دعوات كثيرة. وأحيانًا يعيد الله ويكرّر علينا الدعوة التي رفضناها ولم نصغ إليها سابقًا، (الدعوة المستمرّة إلى المصالحة). أحيانًا أخرى يرسل لنا أشخاصا آخرين يدفعوننا نحو الأمام، يحثّوننا على النموّ، يساعدوننا أن نجاوب بطريقة أفضل تجاه ما يريده منّا.

إذا رغبنا أن نكون كاملين مثل الآب[٢٠٠] ، علينا ألاّ نرضى بما نحن عليه اليوم (الآن). غدًا، يجب أن نكون مختلفين. تدفعنا نداءات الله المتكرّرة نحو هذا المفهوم.

الله لا يتعب أبدًا مع الإنسان، يبدو وكأنّه فاقد الزمن معه وبسببه، يهبه عطايا مجّانيّة لا يدفع الإنسان فيها ثمنًا: يهبه الثقة، والإيمان: رغم ما حدث البارحة، فإنّ الغد يحمل زهورًا جديدةً، خصوبة جديدة، يوما مختلفا، أفضل؛ يهبنا إمكانيّة أن نجاوب عليه بطريقة مختلفة، الفرصة أن نبدأ مرّة أخرى.

إنّها مغامرة الحبّ: " أن نحبّ شخصا، يعني أن ننتظر منه شيئًا لا يمكن أن نتوقّعه، أو نعرفه. يعني مع مرور الوقت، أن نسمح له، بطريقة ما، ليجاوب على هذا الانتظار. نعم! بالرغم ما يبدو من تناقض، فالانتظار هو أن نعطي، بينما أحيانًا أخرى، يكون العكس صحيحا: عدم الانتظار يعني المساهمة في جعل الآخر عقيمًا فلا نتوقّع أيّ شيء منه، وهذا يعني، بطريقة ما، عزله وحرمانه مسبقًا من شيء ما "[٢٠١].

---

٢٠٠. مت ٥/٤٨.

201. G. MARCEL, *Homo viator*, Borla, Roma 1980, 60.

في الواقع، البشر، فقط، هم الذين يتعبون، ويعطون الثقة فقط أحيانًا، ليسوا مستعدّين، على الدوام، للبدء من جديد. ليس هكذا مع الله. هو لا يتعب ولا يكّل. الحبّ، في الواقع، لا يتعب أبدًا؛ المحبّة لا تسقط أبدًا.

٢- الدعوة إلى النبوة

يقول الله ليونان: " أعلن لهم ما أقوله لك "، فعل أمر. لا يتطلّب منه تفكيرًا، أو تأليفًا تجاه ما يجب أن يقوله. الرسالة صادرة من آخر وليست نابعة منه. ما يُطلَب منه فقط الفم والقلب، أمام هذه الحقيقة نستدعي فكرتين:

الأولى الدعوة إلى الأمانة تجاه الكلمة المؤتمنة عليها. كما أشرنا سابقا، فلا يمكن تطويعها والتلاعب بها، أو تجميلها. نحن مرسلون نحمل كلمة آخر أو رسالته. دورنا في الحياة احترام الذي يرسلنا، الرسالة التي ائتمنّا عليها.

الثانية، كما أوضحنا آنفًا، لم يرسل يونان ضدّ نينوى، بل في صالحها، هذا يسمح لنا بالإشارة لدعوتنا المسيحيّة: إنّ كلّ واحد منّا، هو، ويجب أن يكون نبيًّا للآخرين، يجب أن يبذل حياته في صالحهم، ولأجل خيرهم؛ كلّ قول أو فعل منّا غايته مساعدة الإخوة للنموّ (أنتم نور العالم....ملح الأرض....قد جعلتك نورًا للأمم)، وليس حجر عثرة.

ندرك جيدًا، أن القداسة التي دعنا الله إليها لايمكن قبولها أو الوصول إليها دون أن نساعد الآخرين لقبواها أو بلوغها. لذلك كل فرد منا مدعو أن يكون للآخر "شمعة / مصباحًا "، " أذنًا / عينًا " تسمع وترى لأجل خير الآخر[٢٠٢]. مطلوب من كل واحد منا ان " يسهر " على أخيه، لأن الله سوف يسألنا عنه قائلاً: " أين أخوك؟ " [٢٠٣]، طالبًا منا حساب الوكالة.

إنها المسؤلية تجاه جميع الذين إتمننا الله عليهم، الذين يضعهم الله في طريقنا. نحن مسؤلون عن كل جوانب حياة الإخوة " إخوتي جميع البشر ". نحتاج

٢٠٢. حز ٣٣/٧-٩.
٢٠٣. تك ٤/٩.

للقيام بهذه المسؤلية إلى الامتلاء بروح الرب، حيث نصعد بانتظام جبل الرب (جبل طابور) تصارع الله، تاركين الله ينتصر فينا، هناك يتجدد لقاؤنا مع الله، فيرسلنا مرّة ثانية، هناك يعلن الله الحقيقة للإنسان، ويهبه الرسالة التي ائتمنه عليها. نتمم هذه المسؤلية أيضا عندما نقبل النزول من الجبل إلى الوادي، هناك ينتظرنا الإخوة، هناك تتجسّد الرسالة في الخدمة: خدمة تتزامن مع تبشير ورعاية، قيادة ومرافقة، تعليم وصداقة، توبيخ وتعزية. أيضا في هذا الإطار لا يتركنا الله الصالح، فيرسل لنا أشخاصا يعتنون بنا بطرق مختلفة.

يقول الكتاب المقدّس: " الويل لمن هو وحده، لأنّه إذا وقع فلا أحد يقيمه "[٢٠٤]. يمكننا أن نضيف، الويل ثمّ الويل لمن يترك أخاه يسقط دون أن يساعده على القيام. بمقدار ما نساعد بعضنا بعضا في الخير نكون أفضل، " معا نكون أفضل " بمقدار ما تكون اليد في اليد، ونحيا كما يريد المسيح، نسير نحو القداسة الحقيقيّة " أمّا أنا فجئت لتكون لهم الحياة، بل ملء الحياة "[٢٠٥].

٣- الخضوع للكلمة

تدعونا، هذه الآيات الثلاث، من جديد إلى التركيز في كلمة الله. يقوم يونان ذاهبًا إلى نينوى " كما كلّمه الربّ ". لم يذهب حبًا أو لسابق معرفة هناك. ذهب خضوعًا لكلمة الله فقط والموجّهة إليه.

خضع خضوعًا: هذا هو التعبير المناسب تمامًا لما يحدث مع يونان. الخضوع للكلمة يعني أن أضع ذاتي أسفل الكلمة، تحت قدميها، تحت تصرّفها، على مثال مريم الجالسة تحت قدمي يسوع تصغي[٢٠٦]. يقبل الكلمة كأساس ومقياس لحياته، هي تقود أيّامه وحياته، تظلّله وتحميه[٢٠٧].

يحضرني نصان يعبران عن هذه الفكرة، أولهما يخصّ حياة كلّ فرد منّا: "ليس هناك عمر، لحظة من حياتنا إلاّ وتخاطبنا كلمة الله بشيء ما. كلّ حياتنا هي تحت جناحي كلمته، منها تستمدّ قداستها "[٢٠٨]. وثانيهما من سينودس الأساقفة

---

٢٠٤. جا ٤/١٠.
٢٠٥. يو ١٠/١٠.
٢٠٦. لو ١٠/٣٨.
٢٠٧. مز ٩١؛ يو ١٠/١-١٦.

208. D. BONHOEFFER, Predica del 15 april 1928 (*in Memoría e fedeltà*, Qiqajon, Bose 1995, 197).

(١٩٨٥م) المنعقد بمناسبة مرور عشرين عامًا على المجمع الفاتيكانيّ الثاني: " الكنيسة تحت مظلّة كلمة الله، تحتفل بأسرار المسيح لأجل خلاص العالم".

إنّ كلمة خضوع تشمل في مضمونها رسالة، حيث يذكّرنا يونان أيضا، أنّ الرسالة التي يأتمننا الله عليها، رغم تنوّع الدعوات، تعايش وتختبر دائمًا تحت قيادة الله: هي رسالته، تتطلّب خضوعًا له. ليس هناك دور أو مسؤوليّة في الحياة المسيحيّة خارج أو منفصله عن المسيح. هو الذي يدعو ويرسل دائمًا. نحن لا نذهب باسمنا، ولا نعود للذهاب من جديد برغبة أوب دافع شخصيّ.

جدير بالاهتمام أن نلاحظ تعبير" كما/ حسب " كلمة الربّ، حيث نكتشف أنّ الدعوة لإتمام الرسالة الموكلة تتمّ " بطريقة " الربّ. لا يعني هذا، في الوقت نفسه، أنّنا مجرّد أدوات فارغة، أو مجرّد طاعة شكليّة، أو إرسال مجبر، إنّما هو فعل أمانة، كيان أمين نحو منطق وأسلوب من أرسله (وكان موسى أمينا في كلّ أرجاء بيت الرب)، بالتالي فإنّ الخدمة ونوعيّة الخدمة هما عنصران متلازمان.

يمثّل هذا النص نموذجًا للإلحاح على أوليّة كلمة الله في حياتنا. يعلّق كارل بارت على ذلك قائلاً "حقّا يبدأ الكتاب المقدّس بالكلام، عندما نسمح له بإلقاء الكلمة الأولى، أن يعطي أفكارنا بدءًا جديدًا، فتتوالى من بعده الأفكار الأخرى، على مثال الجند الذين يتبعون قادتهم"[٢٠٩].

209 K. BARTH, in *Iniziare dall'inizio.* Antologia di testi, Queriniana, Brescis 1990, 20.

"مناجاة"

يا ربّ، شكرًا،

لأنّك تهبنا القدرة دائمًا أن نبدأ من جديد.

حتّى عندما يضعف رجاؤنا،

فإنّك تعيد الكرّة من جديد،

قائلاً: إنّ غدًا سيكون مختلفًا.

نحتاج لقدرة وجهد عظيمين لفهم معنى حياتنا،

بطريقة نشعر من خلالها بمدى مسؤوليّتنا عن الآخرين.

إنّما، أنت تعلم يا ربّ، كم أنّ هذا صعب جدًّا!

كم هو صعب أن نكون مسئولين عن أنفسنا....

رغم ذلك، فإنّك تطلب ذلك منّا.

لذلك نطلب منك العون والقدرة،

لكي نحاول، ونجرّب.

علِّمنا أن نحيا حياتنا،

دعوتنا، ورسالتنا،

تحت كنف، ورعاية كلمتك:

المطهِّرة، الشافية، والحامية،

مدفوعين، دائمًا، بقوّتها.

آمين.

تساؤلات

١. كثيرًا ما يدعوني الله في مراحل حياتي المختلفة، فهل أصغي لكلمة الله؟ هل مع مرور الزمن يتطهّر إصغائي ويتنقّى ويصير أكثر رقّة أم لا؟

٢. الله يثق فيّ. هل أفعل ذلك مع الآخرين؟

٣. هل أعي أن حياتي هي في خدمة الآخرين ولصالحهم، أم أفكّر في ذاتي فقط؟

٤. هل أشعر بمسؤوليّتي تجاه ما يحدث حولي، أم لا أهتمّ بحياة الآخرين سواء نموّهم أو انهيارهم؟

٥. هل تغلّف كلمة الله حياتي حقًا؟

٦. هل أضع ذاتي تحت تصرّف كلمة الله، أم أخضعها لتحقيق أهدافي الخاصّة؟

٧. هل أقوم بالمهام الموكلة لي " كما " و" بالطريقة " التي يريدها يسوع؟

الفصل الثامن

الالتزام الخلاصيّ

(يون ٣/٣ب–٤)

"مناجاة"

يا ربّ،

نرغب في بناء حياتنا على الصخرة،

وليس على الرمال.

ولأجل ذلك، نهيّئ ذواتنا مثابرين،

لإصغاء كلمتك.

بالطبع، نعرف جيّدًا،

أنّه من السهل البناء على الرمال:

فالأساسات توضع بسرعة، دون عناء.

لكنّ عيبها فريد وخطير:

فالأساس غير متماسك، لا يقاوم الأحمال.

يا ربّ، نريد، أساسًا صلبا، متماسكًا، على الصخرة،

وندرك أنّ هذا يتطلّب زمنًا،

طاقة، استعدادًا، وصبرًا.

يا ربّ، اعمل، ألاّ يخور ويضعف التزامنا في الإصغاء لكلمتك،

لأنّ الإصغاء يطهّر قلوبنا،

ويقرّبه نحوك أكثر يومًا بعد يوم.

آمين.

نصّ (يون ٣/٣ ب-٤)

" وكانت نينوى مدينةً عظيمةً جدًّا يستغرق اجتيازها ثلاثة أيّام، فدخل يونان إلى المدينة، وسار فيها يومًا واحدًا وهو ينادي ويقول: " بعد أربعين يومًا تدمُّر نينوى "

هنا يبدأ الكاتب في وصف مدينة نينوى،حيث تتداخل الحقيقة والرمز.

٣ب. " وكانت نينوى مدينةً عظيمةً جدًّا يستغرق اجتيازها ثلاثة أيّام "

نينوى ليست فقط " المدينة العظمى "[٢١٠]، بل هي " المدينة العظيمة جدًا ". يؤكّد النصّ العبريّ ذلك بأنّها "المدينة العظمى أمام الله"؛ " عظيمة إلهيًا "، فعل تعظيم. ليس هذا على المستوى الجغرافيّ ، بل أيضا على المستوى السياسيّ والاقتصاديّ، كما أشرنا إلى ذلك آنفًا، وذلك بسبب قسوتها وغطرستها .

على أيّ حال، ما يهمّ هنا أنّها رمز للمدينة العظمى المفقودة والبعيدة تماما عن الله. والإشارة أنّها تحتاج إلى ثلاثة أيّام لعبورها، يوضّح كبر المساحة، بالمقارنة بأورشليم التي تُعبَر في أقلّ من نصف ساعة: " يشير الرقم ثلاثة إلى البعد الثالوثي، والذي يعبر عن إعلان ولادة. هكذا عبور المدينة في ثلاثة أيام يشير إلى ولادة هذه المدينة من جديد "[٢١١] .

٤. فدخل يونان إلى المدينة، وسار فيها يومًا واحدًا وهو ينادي ويقول: "بعد أربعين يومًا تدمُّر نينوى "

أخيرًا، وصل يونان إلى نينوى، المدينة المرسل إليها.

"وسار فيها يوما واحدا"

يصعب تفسير هذا الأسلوب، هناك تفسيران:

---

٢١٠. يون ٢/١.

211. Ruth REICHELBERG, *L'aventure prophètique. Jonas, menteur de vèrité*, 134.

الأول: يمكن القول إنّه لم يمضِ إلاّ يوم واحد من إعلان البشارة، حتّى بدأ أهل نينوى مسيرتهم في التوبة (هذا التفسير مقبول بالنسبة لأهل نينوى) .

الثاني: أنّ يونان لم يكن متحمّسا للرسالة، لقد تعب بعد يوم واحد، إنّ طاعته طاعة مختزلة، شحيحة حتّى النخاع (تفسير غير مقبول في عيني يونان).
يمكن أن يتوافق التفسيران معا، وهذا ما يؤكّده باقي النصّ.
وهو ينادي ويقول:" بعد أربعين يومًا تدمُر نينوى"
ها قد وصلنا إلى مضمون الرسالة التي يحملها يونان.

مناديًا: يظهر من جديد الفعل العبري (qara)، ومشتقاته (مناديًا، صارخًا، معلنًا، مبشّرًا، إلخ). لقد تناولناه في اللقاء الأوّل بين الله ويونان[٢١٢] ، ومع دعوة القبطان الوثنيّ ليونان إلى الصلاة[٢١٣] . هنا نجده من جديد في دعوة الله الثانية إلى يونان[٢١٤]، أيضًا في الآية التالية، حينما " ينادي" أهل نينوى إلى الصوم. من الصعب اختزال رسالة الله على لسان يونان إلى هذا الحدّ: النطق بخمس كلمات.

ج. "بعد أربعين يومًا"

من جديد، نحن أمام رقم رمزيّ: حيث يتكرّر الرقم " أربعون" بكثرة في الكتاب المقدّس. استمرّ الطوفان أربعين يومًا[٢١٥]، والذي سمح به الله " ورأى الرَبّ أنّ مساوئ النَاس كثرت على الأرض، وأنّهم يتصوَّرون الشرّ في قلوبهم ويتهيّئون له نهارًا وليلاً"[٢١٦] . أيضًا، يرى الله هنا مساوئ النَاس متمثّلة في أهل نينوى[٢١٧] . أربعون يومًا مكثها موسى النبيّ على جبل سيناء قبل أن يستلم لوحي العهد[٢١٨]، أربعون يومًا تجسّس فيها المرسلون على أرض كنعان[٢١٩]، هكذا كانت مسيرة إيليّا نحو حوريب[٢٢٠]. أربعون يومًا استمرّ الظهور الليليّ للحرّاس قبل أن يدخل الملك أنطيوخس ويدمّر هيكل أورشليم[٢٢١]. أربعون يومًا نام فيها حزقيال النبيّ على جانبه الأيمن مشيرًا بذلك على مملكة يهوذا، ليصوّر مدى إثم أورشليم[٢٢٢] .

---

٢١٢. يون ١/ ٢.
٢١٣. يون ١/ ٦.
٢١٤. يون ٣/ ٢.
٢١٥. تك ٧/ ٤، ١٢، ١٧؛٨/ ٦.
٢١٦. تك ٦/ ٥.
٢١٧. يون ١/ ٢.
٢١٨. خر ٢٤/ ١٨؛ ٣٤/ ٢٨؛ تث٩/ ٩،١١، ١٨،٢٥ ؛ ١٠/ ١٠.
٢١٩. عد ١٣/ ٢٥؛ ١٤/ ٣٤.
٢٢٠. ١ مل ١٩/ ٨.
٢٢١. ٢مك ٥/ ٢.
٢٢٢. حز ٤/ ٦.

يسوع الإنجيل يختبر حياة الصحراء مدّة أربعين يومًا استعدادًا للرسالة[٢٢٣]. قضى يسوع أربعين يومًا، بعد قيامته، يعلّم تلاميذه[٢٢٤].

تمثل الأربعون يومًا، رمزيًا، الزمن الذي يمنحه الله لأهل نينوى لتغيير حياتهم، من جهة أخرى، الزمن الذي من خلاله يتّقي الشعب العقاب الإلهيّ. إنّه زمن الرحمة، وزمن الالتزام، زمن النعمة والتوبة. يؤكّد ذلك سفر الحكمة مخاطبًا أوّلاً شعب إسرائيل، في الوقت نفسه لا ينسى الأمم الأخرى: " فأنت أيّها الرّبّ عادلٌ تعمل كلّ شيءٍ بالعدل وترى أنّ الحكم على من لا يستحقّ العقاب منافيًا لقدرتك. ولأنّك ربّ الجميع وجبروتك مصدر كلّ عدلٍ، فأنت تترفّق بالجميع وتظهر جبروتك للّذين يؤمنون بكمال قدرتك، وأمّا الّذين يعرفونها فتشجّعهم على إعلان ما يعرفون. وبما أنت عليه من القدرة تحكم بالإنصاف وتؤدّبنا بمنتهى العطف وتمارس جبروتك ساعة تشاء. وبعملك هذا علّمت شعبك أنّ من كان صالحًا فلا بدَّ أن يكون رحومًا، ومنحت أبناءك رجاءً كبيرًا بإعطائهم فرصة للتّوبة عن خطاياهم"[٢٢٥].

د. "بعد أربعين يوما تدمّر نينوى"

يترجم الفعل العبريّ "haphak" إلى العربيّة بالفعل "هلاك / تدمير"، ويفضّل ترجمته بالفعل " انقلاب/ تغيير". في هذه الحالة يمكن تفسير الآية إلى معنيين:

الأوّل: يستخدم الكتاب المقدّس هذا الفعل، عادةً، ليشير إلى عمل الله الجادّ والحازم أمام سلوك سادوم وعمّورة[٢٢٦]، أو مدينة بابل[٢٢٧]، أو للتذكرة بخطيئة إسرائيل، كرمة الربّ[٢٢٨]، والعقاب الذي سوف ينزل عليهم[٢٢٩]، أو الذي نزل عليهم بسبب خطيئتهم. الثاني: انقلاب، بمعنى إمكانيّة جذريّة نحو التغيير، تغيير الحياة وإعطاء مساحة أكبر لبداية جديدة. نجد الفكرة نفسها في[٢٣٠] مستخدمًا فعلاً آخر، حيث يرجو النبيّ، بحرارة، أن يغيّر الشعب سلوكه حسب كلمة الله. يقدّم لنا الإصحاح التالي تغييرًا في سلوك الشعب، ليس بسبب التهديد، بل بسبب رحمة الله وصلاحه.

---

٢٢٣. مت ٤/٢؛ مر ١/١٣؛ لو ٤/٢.
٢٢٤. أع ١/٣.
٢٢٥. حك ١٢/١٥-١٩.
٢٢٦. تك١٩/٢١، ٢٥؛ إر ٢٠/١٦؛٤٩/١٨؛٥٠/٤٠؛مرا ٤/٦؛ عا٤/١١.
٢٢٧. أش ١٣/١٩.
٢٢٨. إر ٢/٢١.
٢٢٩. تث ٢٩/٢٢.
٢٣٠. إر ٣٦/٧.

التـــــأمـّـــــل

نودّ أن نحصر هذا التأمّل في رسالة يونان. كما أشرنا سابقًا " بدأ يونان مسيرة يوم واحد في المدينة". تحمل هذه الآية معنيين: إمّا أنّ يونان تعب سريعًا، أو أنّ شعب نينوى تاب سريعًا. سوف ندخل، قدر الإمكان، إلى الأعماق الأساسيّة لهذين المعنيين، وذلك بجانب المسيرة ذاتها، والزمن الذي يمنحه الله " زمن التوبة".

١. الخير المتعب

بدأ يونان مسيرة، فالرحلة طويلة وشاقّة، والمدينة شاسعة. في الوقت نفسه، الرسالة قصيرة. فأن يكون الإنسان إنسانًا، ومسيحيًّا، مكلّف جدًّا، يتطلّب ثمنًا باهظًا، وهو متعب للغاية. لا يمكننا أن نصل إلى أهدافنا دون التزام أو عناء. أيضًا، يتطلّب فعل الخير جهدًا عاليًا. غالبًا، ما يثير الخير تعبًا، ربّما لأنّ المسيرة أطول ممّا توقّعنا، أو لأنّ النتائج لم نكن نّتوقّعها! ها نحن نصطدم بالحقيقة: " كلّ شيء سهل المنال عقيم، بينما كلّ شيء صعب المنال، إذا تحقّق، دام إلى الأبد"[٢٣١]. نختبر ذلك في حياتنا اليوميّة، أمثال ونماذج تدوم بعد التزام دائم " مسيرة ثلاثة أيّام". أمام هذه الحقيقة، أحيانًا، نفضّل ونختار طريقًا آخر، أمام الصعوبات، قد نترك ما قد بدأناه. هكذا، تنهار سريعًا التزاماتنا، تعهّداتنا (نذورنا الاحتفاليّة). تضعف الرغبة في إعادة تدعيم الالتزامات والتعهّدات المهدّمة، أو حياكة الملابس القديمة، نسير مهلهلين، أو نستهتر ونهمّش الجروح حتّى تتقيّح، أو إهمال إعادة رسم وترميم مشروع حياتنا. بسهولة، نترك الحلبة، أمام الصعوبات، ونقول مع السلامة، مفضّلين الانسحاب بهدوء (الهروب من المواجهة)، أحيانًا من هول الصدمة لا نقول سلامًا. لا يدوم حبّ دون استمراريّة والتزام، لا يمكن أن نبني دون التزام يوميّ (إن أردت أن تبني برجًا...)[٢٣٢]. إذاً من نحبّ؟ إذا كان الحبّ يتبدّل ويتغيّر يوميًّا أمام أصغر الصعوبات؟ أين أعمالك العظيمة إذاً؟ فقط، الاستمراريّة والالتزام، هما

---

231. DE SAINT- EXUPÉRY, *Citadelle*, 146.

٢٣٢. لو ١٤/ ٢٥-٣٣.

الضمانان لخصوبة جهدك الدءوب. حتّى يولد إنسانًا، فإنّ ذلك يتطلّب أجيالا.

هذا لا يجعلنا نعتقد أنّ بعد هذا الجهد، أعمالنا سوف تكلّل بالنجاح. ما يطلب منّا فقط هو الالتزام، أما النتائج فلا تخصّنا. يقول كارل بارت: " نحن لن نُسأل عن غنى قدراتنا أو مواهبنا، بالحريّ عن طاعتنا، وعمّا فعلناه بالوزنات التي أوكلت إلينا "[٢٣٣]. واجبنا الأساسيّ هو استخدام جميع هذه الوزنات، والباقي يخصّ الله " افعل كلّ ما تستطيعه: ولن يبخل الله بمساعدة إرادتك الصالحة"[٢٣٤].

٢. رسول بالكاد

هذه الفكرة مستوحاة من آراء بعض المفسرين تجاه يونان الذي التزم بالمسيرة مدّة يوم واحد. لا نحتاج إلى جهد كبير لإدراك أنّ يونان لم يكن متحمسًا تجاه ما طلب منه. يفعله مرغما. إذا أمعنّا النظر بعمق أمام سلوك يونان، نجده يتفق، غالبًا، مع سلوكنا في مراحل عمرنا المختلفة.

يتطلّب هذا منّا أشياء كثيرة، أعمالاً عديدة، تقدمات والتزامات متنوّعة، مدركين أنّ تجاوبنا يحمل إمكانيّات متنوّعة، تبدأ من النَعَم أو القبول الحماسيّ وتصل إلى الرفض الغاضب. هناك الإجابة التي يقدّمها يسوع في مثل الابنين: الذي يقول نَعَما ولا يذهب للعمل في الكرم الأبويّ[٢٣٥].

هناك إجابة أخرى، أكثر شيوعًا، التي تقول نعما بفم مغلق، لا يحاور، منزوع الرغبة. لا يرفض، في الوقت نفسه، لا يرغب في الحوار أو المناقشة، يطلق عليه بالنعم المسلوب أو المخطوف. في هذه الحالة لا تعتبر هذه الطاعة فضيلة، بل مجرّد فعل ظاهريّ، فارغ، هزيل حتّى النخاع.

نقف بعد " مسيرة يوم ". ننسحب، نلوم، نتذمّر، نهرب أمام أولى العقبات قائلين: " أنا أعلم أنّي لم أخلق لهذا...أنا قلت لكم هذا أوّلاً...فعلت كلّ ما يخصّني... ليس من النفع أن أكمل!".

---

233. K. BARTH, *Iniziare dall'inizio. Antologia di testi*, 66-67.

٢٣٤. الاقتداء بالمسيح: ٤٠.
٢٣٥. مت ٢١/٢٨-٢٩.

سريعًا، يدرك الناس، والأصدقاء، الذين يعرفوننا جيّدًا، أنّ ما نفعله، أو نتّجه نحوه، لا يجذبنا، بل نحن نتّجه إليه دون حماسة، نختلق أسبابًا ومشاكل سطحيّة، نخفي وراءها السبب الحقيقيّ وهو الرغبة الضعيفة في الالتزام حتّى النهاية. يعلّق على ذلك البابا بولس السادس، بأسطر رائعة حول التبشير بالإنجيل هو واجب للجميع، قائلا: "حتّى يستطيع عالمنا المعاصر، الباحث في زمن يتأرجح بين الشعور بالغربة واللوعة، وبين الشعور بالرجاء، أن يستقبل البشرى السارة (الإنجيل)، ليس من مبشّرين حزانى يكتنفهم اليأس والإحباط، قلقين، غير صابرين، بل من خدّام الإنجيل تشعّ الحياة فيهم بقوّة؛ اختبروا، أوّلاً، فرح المسيح، مستعدّين دائمًا أن يغامروا بحياتهم لأجل خدمة نشر الملكوت، ولطبع الكنيسة في قلب العالم أجمع"[٢٣٦].

٣. الإجابة المستعدة

يرى بعض المفسرين التعبير "مسيرة يوم واحد" تجاوبًا سريعًا وتوبة من جهة أهل نينوى. لم يكن هناك احتياج لأن يتعب يونان في تبشيرهم: المستمعون لهم آذان صاغية، إجابتهم حاضرة، مباشرة وسريعة. في هذا الإطار، نعود بالذاكرة لأشخاص ينطبق عليهم هذا السلوك: الإجابة الحاضرة والمباشرة.

أوّلاً: يخطر ببالنا أشخاص عديدون تلاقينا معهم خلال مسيرة حياتنا، أصبحوا قدوة ومثالاً يحتذى به: أشخاص مستعدّون دائمًا للانطلاق والذهاب خارجًا، أسخياء في الخدمة، بعيون يقظة للتدخّل السريع حيث الاحتياج (مثل الوكيل الأمين)[٢٣٧]. أشخاص يحملون داخلهم سلاما باطنيًا عميقا، يمنحونه حيث يذهبون.

ثانيًا: نفكّر في أشخاص، حولنا، مستعدّين دائمًا لمساعدتنا. كلّ فرد منّا، لديه أشخاص يستطيع الاعتماد عليهم، في أيّ لحظة أو مناسبة، أشخاص يستطيعون دائمًا أن يعملوا دون تردّد، ويتوقّعوا احتياجاتنا " الصديق هو الذي يتنبأ

٢٣٦. بولس السادس، التبشير بالإنجيل ٨٠
٢٣٧. لو ١٢/٤١-٤٥.

دائمًا: متى احتاج إليه"[٢٣٨]، ويقدّمون ضعف ما نحتاج إليه. المستعدّون دائمًا لا يهجروننا أبدًا، نعمة كبيرة أن نلتقي بهم في مسيرة حياتنا، ولهذا، ولأجل هذا، وجب علينا الشكر.

كلّ ما سبق يستدعي استعدادنا الشخصيّ. أوّلاً وقبل أيّ شيء آخر، مدى استعدادنا نحو الله. ليس الأمر سهلاً!. كثيرًا ما يقف الربّ في الصفّ ضمن الآخرين ليحصل على إجابتنا بالنعم.

القول إنّ أهل نينوى، بالرغم كونهم وثنيّين إلاّ أنّهم آمنوا سريعًا، وكانت إجابتهم حاضرة، أمام إله إسرائيل. نعرف جيّدًا أنّ نصّ يونان كُتب بأسلوب روائيّ، إلاّ أنّ هذا لا يمنع حدوثه هكذا. يكفي أن نتذكّر ما قرأناه عن توبة أشخاص، تركوا داخلنا بصمات رائعة، على سبيل المثال لا الحصر: شار دي فوكو... بالنسبة لهؤلاء الأشخاص يكفيهم لحظة ويصبح الله كلّ شيء في حياتهم، وسابقًا لهذه اللحظة، لم يكن الله بالنسبة لهم شيئًا. لا يحدث ذلك في حياتنا، ربّما لأنّنا اعتدنا التعامل مع " الأشياء المقدّسة "، فأصبحت توبتنا بطيئة، وإضاءة قلوبنا خافتة ساكنة فيَّ، والتي غالبًا ما نكتفي بها.

أيضا، بالمقارنة مع الآخرين، نكتشف استعدادنا غير السخيّ للمجاوبة. وعدم الاستعداد في العون، والإصغاء، والمواجهة. ومع هذا، هناك استعداد عام، كما يوجد حبّ عام: " في وضعنا البشريّ، الحبّ النظري هو دائمًا حبّ للذات"[٢٣٩]، ثمّ عمليًا، عندما يطلب منا التزام واقعيًا، هنا ودون أن نعبّر خارجيًا، نفكّر أكثر من مرّة: "على أيّ حال، إن لم تجد شخصا آخر للقيام بذلك، فسوف أقوم به!".

في كلّ ما عرضناه سابقًا، هناك البحث عن السلام والراحة والهناء الشخصيّ، والذي يمكن أن نطلق عليه " البحث عن الخصوصيّة، وعدم الإزعاج". للأسف، أصبحنا جميعًا متأثّرين بهذه العقليّة، حيث نضع على باب غرفنا علامة " عدم الإزعاج"، هكذا التليفونات الحديثة والمحمول تقدّم لنا خاصّيّة إظهار الرقم،

---

238. J. RENARD,In *Semi di consolazione*, Genova 1976, III, 438.
239. F.M. DOSTOEVSKIJ, *L'idiota*, Paoline, Roma 1981, 585.

وبالتالي نجاوب على من نرغب الردّ عليه. الأسوأ من ذلك، حينما نضع علامة " عدم الإزعاج" على قلبنا! أمام الحبّ؛ أمام مساعدة الأخوة؛ أمام الاستعداد السخي للقاء الآخر، حينما يخضع ذلك لساعات محدّدة، ساعات العمل: من الساعة ... إلى الساعة .... أمام ذلك نقول: وداعًا للاستعداد، وداعًا للسخاء! كلّ شيء في زمنه المحدّد! لا نستطيع أن نقول " عندما يطلب منّا الذين نحبّهم شيئًا ما، نشكرهم لأنّهم طلبوا منّا هذا الشيء"[٢٤٠] .

٤. زمن الخلاص

يصرخ يونان " بعد أربعين يومًا". إنّه الزمن الذي يسمح به الله لأجل توبة أهل نينوى وخلاصهم. أيضًا، أربعون يومًا هو الزمن الذي يسمح به الله، لكلّ فرد منّا، لكي يتغيّر ويصير كما يريد الله. ربّما تكون الدعوة إلى التوبة، هي الدعوة الأكثر شيوعًا في الكتاب المقدّس. الإنسان مدعوّ أن يحيا ملء الحياة، لذلك يجب أن يحيا بأعمال عظيمة، تتناسب وهذه العطيّة. إنّه عمل كلّ يوم لا عمل يوم واحد. الزمن الذي نحياه هو "الزمن المفضل" لتغيير عجلة الحياة الرتيبة، الزمن المفضّل لتغيير العقل والقلب، زمن التوبة "فهو يقول: "في وقت الرِّضى استجبت لك، وفي يوم الخلاص أعنتك". وها هو الآن وقت رضى الله، وها هو الآن يوم الخلاص"[٢٤١].

" أربعون يومًا" هو الأسلوب الذي يعبّر به الله أنّه لا يتركنا للهلاك، لدى الله، دائمًا، وقت للإنسان! هناك دائمًا إمكانيّة، هناك دائمًا اللحظة الأخيرة، هناك دائمًا فرصة يمنحها الله للإنسان (عمّال الساعة الأخيرة/ الابن الضال/ يأتي في الهزيع الأخير)[٢٤٢]. هكذا يختلف الله تمامًا عن الإنسان: يعلّق على ذلك بنهوفر قائلاً: " عندما يقول البشر:" لقد فُقِدَ "، يقول الله" وُجِدَ"، عندما يقولون : "هَلَكَ "، يقول الله: " خُلِّص"؛ عندما يقول الناس:" لا"، يقول:" نعم". عندما ينظر البشر نظرة لامبالاة أو احتقار، ها هي نظرة الله المفعمة حبًّا وشوقًا كأنه

240. M. DELBRÉL, *La gioia di credere*, Gribaudi, Torino 1988, 141.

٢٤١. ٢كو ٦/٢.
٢٤٢. مت ٢٠/١-١٦؛ لو ١٥/١١-٣١؛ مت ٢٤/٣٦-٤٤.

لم يحدث شيء. يقول الناس: "ملعون!"، يهتف الله: "طوبى لك!"[٢٤٣]. (أشعيا كما بعدت السماء عن الأرض...)[٢٤٤].

هذه من ملامح شخص الله، حيث تذكّرنا بهذه الإرادة التي لا تفقد أحدا، إنّما تريد الحياة الأفضل لكلّ إنسان: الله هو الذي يهتمّ بالإنسان اهتماما خاصّا، لذلك يتألّم لوعة وشوقًا إليه[٢٤٥].

243. D. BONHOEFFER, Predica del 17 dicember 1933, in *Memoria e Fedeltà*, Qiqajon, Bose 1995, 57.

٢٤٤. أش ٥٥/٨-٩.

245. HESCHEL, *L'uomo alla ricerca di Dio*, 6.

"مناجاة"

يا ربّ، كلّما ننطلق إلى الأمام،

نكتشف يونان قريبًا لنا، مألوفًا،

واحدا منّا.

ربّما اعتقدنا في البدء:

" إنّنا لسنا مثله".

إنّما، الآن، يجب أن نعترف،

" إنّنا تمامًا على مثاله!".

تاريخه يلمسنا عن قرب،

لأنّه قد يمكن أن يكون تاريخنا،

لأنّه تاريخنا.

يا ربّ،

نعتقد أنّ هناك طرقا قصيرة للخير.

إنّما الخير دون التزام لا يدوم طويلا.

كذلك نطيع مرّات عديدة، دون رغبة حقيقيّة،

وفي داخلنا عناد.

يا ربّ، ساعدنا،

أن تكون أقدامنا ناهضة، واقفة،

مستعدّين، دائمًا، لعمل الخير.

يا ربّ، شكرًا، لأجل هؤلاء،

الذين كانوا منتبهين، مستعدّين، محبّين لنا،

الذين وضعتَهم أنت على طريق حياتنا.

يا ربّ، لا تسمح،

أن نفقد الزمن الذي منحته لنا.

" أربعون يومًا " هو الزمن كلّه،

الذي أعطيته لنا لكي نصير قدّيسين.

ليكن زماننا هكذا!

آمين.

تساؤلات

١. هل أترك نفسي سريعًا للتخاذل أمام المتاعب الناشئة عن عمل الخير؟ هل أختار الحلول السهلة المريحة؟

٢. هل أقوم بالأشياء الموكلة لي بالكاد، بثقل؟ أو أطيع على مضض، فقط لأنقذ ماء الوجه

(أطيع خارجيًّا)؟

٣. هل أنا من فئة المنسحبين من التزاماتهم أمام أوّل صعوبة تواجههم؟

٤. هل أنا في حالة شكر دائم على الأشخاص، الذين تقابلت معهم في حياتي، والممتلئين حماسة في دعوتهم، عملهم ورسالتهم؟ هل أنا غيور مثلهم أم متخاذل؟

٥. هل أنا ضمن فئة المستعدّين دائمًا لعمل الخير؟ هل أساعد في نشر الخير وبنائه؟

٦. هل أستثمر الزمن الذي يعطيه الربّ لي حتّى ألتصق به، من خلال كلمته ومحبّته؟

الفصل التاسع

" الله يندم "

(يون ٣/٥-١٠)

"مناجاة"

يا ربّ،في هذه الأيّام الخصبة،

تنزل كلمتك في حياتنا كالأمطار.

تغسلنا من الرأس حتّى القدم.

تنزع عنا قشورنا،

ألوننا الرماديّة، أقذارنا،

التي تراكمت علينا بمرور الزمن،

وأصبحت جلدنا الثاني.

أحيانًا، تبدو كلمتك كالزوفا / كالليف الخشن:

الذي يحكّنا بشدّة، لدرجة الشعور معها بالألم.

إلاّ أنّه ليس لنا بديل آخر:

فإنّ إعادة البناء مكلّف،

والجمال له ثمن، باهظ.

يا ربّ، أكمل،

واسكب علينا كلمتك.

أنزلها على حياتنا،

فتدخل فينا،

وتطهّرنا،

وتحوّلنا إليك كما تريد.

آمين.

نصّ (يون٣/٥–١٠)

"فآمن أهل نينوى بالله ونادوا بصوم ولبسوا مسوحًا، من كبيرهم إلى صغيرهم. وبلغ الخبر ملك نينوى، فقام عن عرشه وخلع عنه رداءه ولبس مسحًا وجلس على الرَّماد. وأمر أن ينادى ويقال في نينوى: " يأمر الملك وعظماؤه أن لا يذوق بشر ولا بهيمة شيئًا ولا يرعى بقر ولا غنم شيئًا، ولا يشرب ماءً وأن يلبس البشر مع البهائم مسوحًا، ويصرخوا إلى الله بشدَّة ويرجعوا عن طريقهم الشِّرِّير وعن العنف الذي فعلته أيديهم، لعلَّ الله يرجع ويندم، ويعود عن شدَّة غضبه فلا نهلك". فلمَّا رأى الله ما عملوه وأنَّهم رجعوا عن طريقهم الشِّرِّير، ندم على الدَّمار الذي قال إنه ينزله بهم، ولم يفعل".

نصف ردّ فعل أهل نينوى على بشارة يونان النبيّ.

١–" فآمن أهل نينوى بالله ونادوا بصوم ولبسوا مسوحًا، من كبيرهم إلى صغيرهم"

نجاح يونان فاق كلّ التوقعات. في الواقع، تتضمّن إجابة شعب نينوى ثلاثة أبعاد مباشرة. أمام رسالة الله بفم يونان؛ لا كلام من أهل نينوى بل أفعال.

أ. فآمنوا بالله: أوّلاً، ترك أهل نينوى آلهتهم، وآمنوا بالله. استخدم النصّ الفعل العبريّ نفسه المستخدم في إيمان إبراهيم[٢٤٦] . لم يقل لهم يونان إنّه مرسل من الله، أدركوا ذلك مباشرةً من مضمون الرسالة. لم يتساءلوا فيما بينهم إن كان الله محقّ، وأنّهم أشرار إلى هذه الدرجة!. لم يطلبوا، أيضا رفع العقاب عنهم.

ب. نادوا بصوم: ثانيًا، حتّى لا يظلّ إيمانهم محصورًا في إطار الكلمات، عبّروا عنه واقعيًا " نادوا بصوم"، هنا يعود من جديد الفعل" قرا qara". لم يقل لنا النصّ، إنّ هذا ثمرة مبادرة شعبيّة، أو من بعض كهنة مرسلين، أحيانًا من إسرائيل أوّلاً[٢٤٧]. فيما يبدو جليًا، أنّ يونان

---

٢٤٦. تك ١٥/٦.

٢٤٧. يؤ ١/١٣–١٤:٢/١٥–١٧.

لم يكن داعيًا لهذا الصوم، أو مشاركًا فيه. يحمل الصوم في المفهوم الإسرائيليّ معاني عدّة : تمهيد للقاء الله[٢٤٨]، يصاحب الرثاء والشكوى[٢٤٩]، أو يصاحب الصلاة لأجل الحصول على شيء ما[٢٥٠]؛ يمارس الصوم أيضا في حالة التهديد بالحرب أو الدمار[٢٥١]، قد يكون الصوم جماعيًا أو فرديًا[٢٥٢]، إجباريّ، حسب الشريعة، يوم الكفّارة[٢٥٣].

ج. ولبسوا مسوحًا : ثالثًا، البعد الأخير من إجابة أهل نينوى، المسوح(saq) هو نوع من الخيش الخشن، الذي يصنع من القفف، يغطّي الجزء الأسفل من الجسم، أسفل أو فوق الملابس، في أزمنة الحداد والحزن والتوبة[٢٥٤].

يبدأ الوثنيّون في تغيير حياتهم تمامًا مستخدمين نفس أساليب ورموز الشعب الإسرائيليّ في التعبير عن توبتهم.

د. من كبيرهم إلى صغيرهم: يؤكّد الكاتب الملهم هنا على شموليّة التوبة، لا يظلّ أحد خارجا، غير مهتمّ بدعوة الله: الإيمان والتوبة عنصران متلازمان. لا تنحصر التوبة في فئة محدّدة، كالأشخاص المؤثّرين، أو الكهنة، أو الشعب فقط، بل الجميع، دون استثناء، من الكبير إلى الصغير، في بعده الشموليّ، سواء على المستوى الاجتماعيّ أو العمريّ.

٢. " وبلغ الخبر ملك نينوى، فقام عن عرشه وخلع عنه رداءه ولبس مسحًا وجلس على الرَّماد"

بنوع من التحديد، يقدّم لنا النصّ، ملك نينوى. فإن كانت نينوى المدينة العظمى والبعيدة، فلنا أن نتخيّل ماذا يمثّل الملك بالنسبة لكل عبرانيّ.

تصل إلى الملك " الكلمة" نفسها التي استقبلها يونان[٢٥٥]. يتلخّص ردّ فعل الملك في أربعة أفعال: قام، خلع، لبس المسوح، جلس على الرماد. أمام

---

٢٤٨. خر ٣٤/٢٨؛ تث٩/٩؛ دا ٩/٣.
٢٤٩. ١صم ٣١/١٣.
٢٥٠. ٢صم ١٢/١٦، ٢٢؛ يؤ ٢/١٢–١٧.
٢٥١. قض ٢٠/٢٦؛ اس ٤/١٦؛ يه ٤/٩،١٣.
٢٥٢. ١مل ٢١/٢٧؛ ٢ اخ ٢٠/٣؛ يؤ ١،٢؛ يون ٣/٥،٧.
٢٥٣. لا ١٦/٢٩–٣١؛ ٢٣/٢٧، ٢٩،٣٢؛ عد ٢٩/٧.
٢٥٤. تك ٣٧/٣٤؛ ٢صم ٣/٣١، ١مل ٢٠/٣١؛ اس ٤/١؛ مز ٣٥/١٣؛ أش ١٥/٣؛ إر ٤/٨؛ حز ٤/١٨؛ يؤ ١/١٣؛ عا ٨/١٠.
٢٥٥. يون ١/١؛ ٣/١.

"الكلمة" هناك الصمت، لا جدوى من كلمات بشريّة، بل أفعال واقعيّة تبرهن على توبته.

لقد سلك " ملوك البحار" والملاّحون السلوك نفسه لدى سماعهم أخبار سقوط مدينة صور، حسب نبوءة حزقيال تجاه هذه المدينة المشهورة[٢٥٦].

بينما لم يسلك، يواقيم بن يوشيا ملك يهوذا، هكذا عند سماعه كلمة الله على لسان إرميا النبي. " فأرسل الملك يهوديّا ليأخذ الكتاب، فأخذه من غرفة أليشاماع الكاتب وقرأه على مسامع الملك وجميع الرُّؤساء الحاضرين لديه، وكان الوقت شتاء في الشهر التّاسع، والملك جالس وأمامه نارٌ متّقدة. فلمّا قرأ يهوديّ ثلاث فقرات أو أربعًا شقّ الكتاب بسكّين الكاتب وألقاه في نار الكانون حتّى احترق كلّه"[٢٥٧]. جلس الملك يواقيم في وضع مريح، لابسًا ملابس أنيقة، متجاهلاً كلمة الله بدلاً من الإصغاء إليها على عكس ما فعله ملك يهوذا، وملك نينوى.

٣- " وأمر أن ينادى ويقال في نينوى: " يأمر الملك وعظماؤه أن لا يذوق بشر ولا بهيمة شيئًا ولا يرعى بقر ولا غنم شيئًا، ولا يشرب ماءً "

بعد الأفعال تأتي الأقوال والكلمات الرسميّة: مرسوم يُلزم الجميع دون استثناء. الكبار والصغار من الأشخاص وأيضا الحيوانات الكبيرة والصغيرة: لا طعام، لا ماء، لا أعمال اعتياديّة.

يستخدم هذا الأسلوب في الكتاب المقدّس بكثرة لربط الأشخاص بالحيوانات[٢٥٨]، في الواقع، نكتشف أنّ هذين النوعين من الكائنات قد خُلقا معًا في اليوم السادس[٢٥٩]. هناك تضامن على مستوى الخلق، إن جاز القول، في الخير والشّر، يكفي الإشارة هنا إلى نصّ الطوفان، حيث يتقاسم الإنسان والحيوان نفس المصير[٢٦٠]. نتناول نصّا آخر أكثر قربًا إلينا، وهو الفصل الثامن من رسالة

٢٥٦. حز ٢٦/١٦...إلخ، ٢٧/٢٩-٣١.
٢٥٧. إر ٣٦/٢١-٢٤.
٢٥٨. إر ٢١/٦: ٣١/٢٧: ٣٣/١٢،١٠: ٣٦/٢٩.
٢٥٩. تك ١/٢٤-٣١.
٢٦٠. تك ٦/٧: ٧/٢-٣.

القدّيس بولس إلى أهل رومية: "الخليقة كَلَّها" تئنُّ وتتألّم آلام المخاض تنتظر ولادة أبناء الله"[٢٦١].

هذا البعد حاضر اليوم، بصورةٍ ملحّة، على كافّة المستويات: خيارات الإنسان، أيّا كانت، تؤثّر تأثيرًا مباشرًا على مستقبل الخليقة جمعاء، من خير أو شرّ، على سبيل المثال لا الحصر: التغيّرات المناخيّة، والانبعاث الحراريّ.

٤- "وأن يلبس البشر مع البهائم مسوحًا، ويصرخوا إلى الله بشدَّة ويرجعوا عن طريقهم الشرِّير وعن العنف الذي فعلته أيديهم"

يستمرّ النصّ في إعلان قائمة المرسوم. لا يكتفي بسلوك خارجيّ للحزن والندامة، بل يطلب التزام القلب والحياة كلّها.

هنا يعود من جديد الفعل" قرا qara" مشيرًا إلى الاحتياج الشديد إلى الصراخ " بكلّ قوّة– chozqah" إلى الله. بجانب الإلحاح على الصلاة، يستمرّ الاعتقاد بضرورة الصراخ إلى الله حتّى يسمعنا. تتّفق وهذا الاعتقاد دعوة إيليّا لأنبياء البعل " اصرخوا بكلّ قوّتكم" حتّى يسمعهم إلههم[٢٦٢].

يتلو ذلك تغيير في السلوك، العودة من السلوك الشرّير، هكذا نادى الأنبياء الكثيرون شعب إسرائيل بتغيير سلوكهم[٢٦٣]. خاصّة أعمال الجور والعنف، وأشكال الخطف والقتل التي تمّت بأيديهم[٢٦٤].

من الأهمّيّة ملاحظة أنّه لا يذكر هنا العبادة للوثن وترك الإله، بل يركّز على أعمال الظلم، والعنف، وعدم العدالة، إنّها نفس رسالة ميخا النبيّ التي ترتكز أساسًا على: احترام العدالة، ومحبّة القريب[٢٦٥].

٥- " لعلَّ الله يرجع ويندم، ويعود عن شدَّة غضبه فلا نهلك؟"

هنا يبدأ الملك شرح لماذا يطلب التوبة من شعبه.

---

٢٦١. رو١٩/ ٢٢.
٢٦٢. ١مل ١٨/ ٢٧–٢٨.
٢٦٣. إر ١٨/ ١١؛ ٢٥/ ٥؛ ٢٦/ ٣؛ ٣٧/ ٧؛ حز ٣/ ١٩؛ ١٣/ ٢٢؛ ١٨/ ٢٣ ٢٠/ ٤٤؛ ٣٣/ ٩؛ يؤ ٢/ ١٢–١٣.
٢٦٤. تك ٦/ ١٣؛ إر ٦/ ٧؛ حز ٧/ ٢٣؛ عو ١/ ١٠؛ مي ٦/ ١٢.
٢٦٥. مي ٦/ ١٢.

أ . لعلّ الله يرجع ويندم: يتطابق الجزء الأوّل من السؤال حرفيًا، أقلّه في اللغة العبريّة، مع نصّ يوئيل النبيّ طالبًا من الشعب ترك خطاياهم[٢٦٦]. تنطلق، الكلمات عينها، من شفاه شخصين مختلفين: ملك – نبيّ، وثنيّ – عبرانيّ.

لا سيّما التعبير "لعلَّ" يأخذ محلّ التعبير "ربّما" الذي عبّر به قبطان السفينة: " لعلّة يفكّر فينا فلا نهلك"[٢٦٧]. هذان الوثنيّان مختلفان اجتماعيًا، أحدهما عظيم، والأخر صغير، يعرف كلاهما، أنّه لا يمكن إجبار الله على فعل إرادتهما. إنّ ما يفعلانه، لا الصوم، ولا لبس المسوح، له وزن له أمام الله، بل تغيير القلب. يظلّ الله حرًا، وكلّ تدخّل من طرفه يظلّ دائمًا فعلاً مجّانيًا، وليس ثمرة مقايضة رخيصة.

ب . ويعود عن شدّة غضبه: نجد هذا التعبير، بكثرة في الكتاب المقدّس "الغضب المشتعل والمتّقد"[٢٦٨]، لا يؤخذ مطلقًا على المستوى النفسيّ، إنّما يشير إلى التحوّل الذاتيّ. يأمل الملك، عمليًا، أن يصل الله في النهاية ولا يعاقبهم.

ج . فلا نهلك؟: إنّه نفس تعبير القبطان[٢٦٩]. كلاهما مدفوع بالرجاء نفسه.

٦. " فلمّا رأى الله ما عملوه وأنّهم رجعوا عن طريقهم الشّرّير، ندم على الدّمار الذي قال إنّه ينزله بهم، ولم يفعل"

لقد قُبِلَ رجاء الملك، كما قُبِلَ رجاء القبطان سابقًا.

أ . فلمّا رأى الله ما عملوه وأنّهم رجعوا عن طريقهم الشّرّير: ليس لإله إسرائيل مثيل، بالمقارنة بآلهة نينوى "لهم عيون ولا يبصرون"[٢٧٠]. إنّه إله لا يهرب من قبضته شيء، ينظر بانتباه وعناية، يحتوي أدقّ الأحداث والعلامات، وعلى ضوئها يعيد تقييم الموقف من جديد. أدرك

٢٦٦. يؤ ٢/١٤.
٢٦٧ يون ١/٦.
٢٦٨. إر ٤/٨،٢٦؛ ١٢/١٣؛ ٢٥/٣٧؛ ٣٠/٢٤؛ ٤٩/٣٧.
٢٦٩. يون ١/٦.
٢٧٠. مز ١١٥/٥؛ ١٣٥/١٦.

توبة شعب نينوى، الذي غيّر طريقه، وترك سلوكه الشرّير، على ضوء ما دعا إليه الملك في مرسومه[٢٧١].

ب. " ندم على الدمار الذي قال إنّه ينزله بهم، ولم يفعل": إن لم نستطع قول هذا التعبير بالأخصّ، يمكننا القول إنّ الله قد " تاب". تبع توبة أهل نينوى توبة الله. لا شكّ إنّه أسلوب خاصّ جدًا في التعبير. لا يسمح النصّ الأصليّ بهذا التعبير. لقد استخدم النصّ، فعليًا، الفعل " ندم- nacham"، بينما استخدم الفعل " غيّر طريقًا- shub" في حالة شعب نينوى. تناول أحد الكتّاب هذه الفكرة، بمناسبة الألفية الثانية، مطبقًا إياها على شخص يسوع، من خلال نص الأب الرحيم. يمثل يسوع الابن الشاطر الذي خرج من الآب، ليس هربًا، أو رافضًا للعلاقة مع الآب، بل باحثًا عن إخوته الضالين، متضامنًا معهم في كل شيء، ما خلا الخطيئة "ها عبدي ينتصر، يتعالى ويرتفع ويتسامى جدًّا. كثير من النَّاس دُهشوا منه، كيف تشوَّه منظره كإنسانٍ وهيئته كبني البشر. والآن تعجب منه أمم كثيرة ويسدُّ الملوك أفواهَهم في حضرته... نما كنبتة أمامه، وكعرق في أرض قاحلة لا شكل له فننظر إليه، ولا بهاء ولا جمال فنشتهيه. محتقر منبوذ من الناس وموجع متمرِّس بالحزن. ومثلُ منْ تُحجبُ عنه الوجوه نبذناه وما اعتبرناه. حمل عاهاتنا وتحمَّل أوجاعنا، حسبناه مصابًا مضروبًا من الله ومنكوبًا وهو مجروح لأجل معاصينا، مسحوق لأجل خطايانا. سلامنا أعدَّه لنا، وبجراحه شفينا... ألقى عليه الرَب إثمنا جميعًا... وضرب لأجل معصية شعبه"[٢٧٢]. هكذا عاد بنا إلى حضن الآب، كما عاد الابن الضال.

استخدم الكتاب المقدّس "ندامة الله" مرّات عدّة. لقد ندم الله عن رغبته في فناء الشعب الخاطئ، عندما شيّد عجلاً من الذهب ليعبده، بعد سماعه تشفّع موسى النبيّ[٢٧٣]. ندم الله، أيضا، عندما أرسل الوباء، بعد أن أحصى داود الشعب[٢٧٤].

٢٧١. يون ٣/٨.
٢٧٢. أش ٥٢/١٣-٥٣/١٢.
٢٧٣. خر ٣٢/١٤.
٢٧٤. ٢صم ٢٤/١٦؛ ١اخ ٢١/١٥.

ندم الله، أيضا، عندما خطّط لإرسال الجراد والشاقول، بعد تدخّل عاموس النبيّ[275]. ختامًا، مجمل القول، إنّ ندامة الله، بمعنى أن يسكب رحمته ورأفته وصلاحه على الجميع، هي إحدى سمات الله الأساسيّة: "فغضب الرّب على شعبه، وكرههم وهم ميراثه. سلّمهم إلى أيدي الأمم، فتسلّط عليهم أعداؤهم، فخضعوا تحت أيديهم. وكثيرًا ما أنقذهم فاستمرُّوا على عصيانهم وهلكوا في ذنوبهم. لكّنه رأى ضيقهم، عند سماعه صراخهم. فذكر عهده لهم وندم لكثرة رحمته"[276].

لقد اختبر أهل نينوى خبرة الشعب العبرانيّ نفسها تجاه رحمة الله. لذلك ينشد المزمور قائلاً: "يا ربُّ، إلى السّماوات رحمتك، وإلى الغيوم أمانتك. عدلك مثل الجبال الشّامخة، وأحكامك يا ربّ غمرٌ عظيمٌ. وأنت تخلّص البشر والبهائم"[277].

٢٧٥. عا ٧/٣.
٢٧٦. مز ١٠٦/٤٠-٤٥.
٢٧٧. مز ٣٦/٦-٧.

التأمّل

ها قد اقتربنا من نهاية النصّ، وتزداد الرسالة التي يرغب الكاتب أن يوصلها لنا وضوحًا: أيضا للوثنيّين خلاص.

١. كلمات قليلة عامّة

من الأهمّيّة أن نتساءل ما هي الأسباب التي دفعت أهل نينوى للتوبة؟ ليست رسالة يونان النبيّ إعجازًا، لا من حيث الأسلوب، ولا الشكل أو المضمون. خمس كلمات، قيلت دون حماسة، تعلن عقابًا رادعًا. هل بسبب العقاب تاب أهل نينوى؟ لا نرغب تناول الموضوع من هذا الجانب. ما نودّ إظهاره هو حقيقة في غاية الأهمّيّة: ليس بسبب كلمات يونان تاب أهل نينوى، بل الله وحده، من خلال يونان، مهّد قلوب أهل نينوى وقادهم إلى التوبة.

ماذا يعني ذلك لنا ولكلّ فرد منا؟

أوّلاً، الاعتراف بأوّليّة ومركزيّة الله في حياة العالم والكنيسة. منه يبدأ كلّ شيء وإليه ينتهي. هو " الألف والياء، والأوّل والآخر، والبداية والنّهاية"[٢٧٨].

ثانيا، نتيجة ما سبق، فإنّ حامل الرسالة، أي المُرسل، هو وسيلة في يديّ الله، عاقلة وحرّة، إلاّ أنّه يظلّ في النهاية أداة حيّة، يستطيع أن يعمل الله من خلالها، ويتعدّاها، بالرغم منها.

فإن كانت هذه هي الحقيقة، يظلّ المرُسل هو حقيقة نسبيّة. ليست الأحاديث الطويلة هي التي تحمل الناس إلى التوبة، ولا الحسن البلاغيّ، ولا الرغبة في عمل فحص ضمير للآخرين. فقط كلمات قليلة- عامّة، كافية لتفعيل حركة تقارب نحو الله. بهذا المعنى يمكننا أن نردّد مع بنهوفر: " لغة غير نفعيّة: يجب أن تصير لغتنا، لغة غير نفعيّة، لأنّ الله يتكلّم من خلالها"[٢٧٩]. اللغة النزيهة هي الكلمات التي تعرف نقل كلمة الله (الكلمة) فقط.

---

٢٧٨. رؤ ٢٢/١٣.

279. D. BONHOEFFER, *La Parola predicate*, Claudiana, Torino 1994, 79.

٢- الخلاص فعل مجاني حر

"من يدرى، لعلّ الله يرجع ويندم، ويعود" هكذا قال ملك نينوى. لقد فهم هذا الملك الوثنيّ عنصرًا أساسيًا جوهريًا في الإيمان المسيحيّ: لا يمكن التلاعب بالله حسب رغباتنا. وبلغة قريبة لنا، يمكننا القول، بأنّ ندم الربّ وعودته، لا يعتمد علينا.

في الواقع، تتأرجح حياتنا المسيحيّة بين طرفين : رحمة الله ومجّانيّته من جهة، وأقصى التزام إنسانيّ من جهة أخرى. في الوقت نفسه، الله يلتزم للغاية (أمين للنهاية) برغم التزامنا الواهي الضعيف، يمكننا أن نضيف، التزامنا لا يلزم الله نحونا بأيّ شيء أو لأجلنا. فلنبعد عن فكرنا، أنّنا بالتزامنا نجبر الله بالتدخّل لصالحنا، كأنّنا نعتقد، لأنّنا فضلاء هو يتدخّل لصالحنا. في الواقع، نكتشف في ميزان العلاقة بين التزام الله والتزامنا، تظلّ كفّة أعمالنا الجيّدة دائمًا الأعلى، بالمقارنة بكفّة محبّة الله الفيّاضة دائما، والراجحة على الدوام. يقول أحد الكتاب " تتنفّس حياتي برئتين متضادتين، الأولى هي فقري الدائم والثانية هي رحمتك الفيّاضة يا الله"[٢٨٠]. مجّانيّة الله! تفوق دائما أفعالنا الخيّرة، وتظلّ محبّته دائما حرّة، غير مجبرة، بل ملتزمة بطبيعتها. لا يخلّصنا الله لكوننا قدّيسين، وليس لأنّه قدّوس يخلّصنا، بل يخلّصنا لأنّه هو الله. هو أحبّنا أوّلا، يحبّنا دائمًا، وأبدا. يؤكّد ذلك كارل بارت قائلا : النعمة لا تسأل مَن نحن، ماذا نملك، وماذا نحمل معنا؟ لا تترك فينا أيّ نوع من الرجاء، إلاّ ما لا نستحقه"[٢٨١]. في الواقع، يضيف الكاتب قائلا: " النعمة لا تغذّى فينا الاتّكال على أفعالنا وقدراتنا، أو فضائلنا، بل فقط على ضعفنا"[٢٨٢].

٣- إلهنا مختلف

الله، أيضًا، مختلف. أحد أهداف سفر يونان، على ما يبدو لي، هو أن يحدّثنا عن الله، ويكشفه لنا كما هو. عبر صفحات السفر، لم يبغ، كاتب السفر، أن يحدّثنا عنّا، ولا عمّا يجب أن نفعله ونتشبّه به.

---

280. P. Mazzolari, cit. da Gianfranco RAVASI, *Il silenzio di Dio. Riflessioni sul libro di Geremia*, Paoline, Milano 1988, 110.
281. K. BARTH, *Iniziare dall'inizio. Antologia di testi*, Queriniana, Brescia 1990, 120.
282. A. LOUF, *Sotto la guida dello Spirito*, Qiqajon, Bose 1990, 50.

ليس ذلك، نكتشف في نهاية سفر يونان، أنّ غاية السفر، هو أنّ الله أراد أن يحدّثنا عن ذاته، أراد أن يقدّم لنا وجهه الحقيقيّ المختلف. في الواقع، ليس وجه الله مختلفًا، بل علينا أن نكتشف أنّه مختلف عمّا نفكّر فيه، أو نظنّ. نحن، إذا، أمام إعلان وكشف إلهيّ عن ذاته (لاهوت الله): تعليم الله عن ذاته.

عندما يحدّثنا النصّ قائلاً " إنّ الله ندم عن الشرّ، الدمار سوف ينزله بهم، الذي أعلنه ولم يفعل"، يقدّم لنا صورة إله مختلف. إله إسرائيل، إله خيّر، ليس تجاه شعبه المختار فقط، بل يتعدّى الحدود تجاه أهل نينوى، يخترق الحواجز الفاصلة، ليس إلها قوميًا، على مثال الآلهة الأخرى الكثيرة. إنّه إله الكون: إله الجميع، القريب والبعيد، يسكب حبّه على الجميع دون تمييز عرقيّ، أو جنسيّ، أو دينيّ، إنّه إله المحبّة؛ المحبّة التي تتعدّى وتهزم الشرّ؛ الفرديّ والجماعيّ.

إنّ صورة الإله الذي يقدّمها لنا سفر يونان، صورة إله عام وليس صورة إله قطاع خاصّ، بل مشاع للجميع، لا يمكن أن نوظّفه، أو نشكّله حسب رغباتنا، أو تصوّراتنا ولذّاتنا. هو إله، كلّما حاولنا أن نحتفظ به لذاتنا، يهرب من أيدينا: هو إله حرّ في أن يهب ذاته للجميع[٢٨٣]. يفوقنا تمامًا، ويستحيل أن تحبسه رغباتنا أو أن نحتفظ به لذاتنا دون غيرنا!

٤- التوبة والخلاص للجميع

كما أشرنا سابقًا، إنّ الدعوة للتوبة موجّهه للجميع، دون استثناء، إنّ ما اختبره أهل نينوى متاح للجميع. البشر، في المرتبة الأولى، دون تمييز (كبير/ صغير- ملك/ من عامّة الشعب)، ليس الأطفال فقط، أو الذين بدون أهمّيّة، أو العبيد، بل أيضا الكبار الأقوياء، أيضا الملوك، لا استثناءات في التوبة، ثمّ يأتي في المرتبة الثانية، الحيوانات الكبار والصغار. من الأهمّيّة أن نلاحظ هذا التضامن العجيب، على مستوى جميع الخلائق، في الخير والشر معًا: فالخير يجلب السعادة للجميع، والشرّ يجلب التعاسة للجميع.

---

283. DE SAINT- EXUPÉRY, *Citadelle*, 191.

الله خالق الكلّ، يدعو الجميع للتوبة وقبول الخلاص. بالرجوع إلى نصّ بولس في رسالته إلى أهل كولوسي: " به خلق الله كلّ شيءٍ في السَّماوات وفي الأرض ما يرى وما لا يرى: أأصحاب عرشٍ كانوا أم سيادةٍ أم رئاسةٍ أم سلطانٍ. به وله خلق الله كلّ شيءٍ وفيه يتكوّن كلّ شيء. لأنَّ الله شاء أن يحلّ فيه الملء كلّه وأن يصالح به كلّ شيءٍ في الأرض كما في السَّماوات، فبدمه على الصَّليب حقّق السَّلام "[284]. يمكننا أن نكتشف في هذا النصّ، دعوتنا في أن نكون جزءا من هذا الكون، الذي خرج من يد الله، و يسير نحوه، كما يقول أيضا بولس الرسول في انتظاره للعالم الجديد: " فنحن نعلم أنّ الخليقة كلّها تئنُّ حتّى اليوم من مثل أوجاع الولادة "[285]. نحن جزء من الكلّ.

٢٨٤. كو ١/١٦،١٩-٢٠.
٢٨٥. رو ٨/٢٢.

"مناجاة"

يا ربّ، نحن أيضا،

ضمن الذين يستحوذون على إلههم.

يا ربّ، نريدك لنا فقط،

وبالرغم من ذلك،

لا نتّفق دائمًا مع أوضاعك،

أفكارك، اختياراتك، حبّك.

ولكن في كلّ مرّة نحاول أن نقبض عليك بقوّة،

لتكون لنا وحدنا،

تهرب من يدنا،

كمن يحاول أن يمسك الماء بيده.

أنت تحبّ أن تكون حرّا:

حرّا في أن تحبّ.

حبّك للجميع،

ولنا أيضا.

ليس لأنّنا نستحقّه،

بل، ببساطة، وفقط، لأنّك خيّرٌ وصالحٌ.

الآن، لا يبقى لنا إلاّ أن نستمرّ في مسيرتنا نحوك،

مسيرة التوبة.

فمن خلالها تُفهمنا،

أنّ ما يجب أن نركّز عليه،

أنّك لست لنا وحدنا،

بل نحن ضمن خاصّتك.

آمين.

تساؤلات

١. هل أتذكّر أنّه ليس بكلامي البليغ يخلص الآخرون، بل الله وحده الذي يخلّص؟

٢. هل يخطر ببالي أنّني قادر على الوصول إلى الخلاص بمجهودي والتزامي؟ ماذا يعني لي مفهوم " الخلاص فعل مجّانيّ"؟

٣. أحاول جاهدًا ألاّ أحبس الله في إطار أفكاري وتصوّراتي المحدودة؟ هل أتركه يتحرّر من هذه التصوّرات؟

٤. هل أعتقد أنّني عضو في الخليقة التي تسير نحو" أرض جديدة وسماء جديدة "، أم أفكّر وأعمل منفردًا، منعزلا عن الآخرين؟

الفصل العاشر

إله المفاجآت

(يون ٤/١-٣)

"مناجاة"

يا ربّ،

نحن نعرف:

أنّ كلّ الذين ولدوا منك

يصغون دائمًا لكلمتك.

ونحن من هؤلاء.

نحن واعون، بأنّه، إنْ لم تسكن كلمتك، وتلتحم بنا في العمق،

لن نستطيع أن نحيا كما يجب.

يا ربّ تكلّم،

فنصغي لصوتك،

الذي افتقدناه، كثيرًا، في معترك الحياة.

إنّها كلمتك،

التي تروي وتحكي حياتنا.

إنّها كلمتك، التي تروي حبّك لنا.

يا ربّ، نحن مشتاقون،

إنّها كلمتك،

التي تغذّينا في مسيرتنا التي بدأناها.

يا ربّ، تكلّم،

نحن خاصّتك، نصغي لصوتك.

يا ربّ، تكلّم،

لأنّنا نرغب أن نمكث معك.

آمين.

نصّ يون ٤/١-٣

" وساء ذلك يونان كثيرًا، فغضب وصلّى إلى الرّبّ وقال: " أيُّها الرّب، قُلتُ وأنا بعد في بلادي إنّك تفعل مثل هذا، ولذلك أسرعتُ إلى الهرب إلى ترشيش. كُنتُ أعلم أنّك إلهٌ حنونٌ رحومٌ بطيءٌ عن الغضب، كثير الرَّحمة ونادمٌ على فعل الشَّرِّ. فالآن أيُّها الرّب خذ حياتي منّي، فخيرٌ لي أن أموت من أن أحيا!"

ها قد وصلنا إلى الإصحاح الأخير لهذه الرواية التعليميّة. كما ذكرنا آنفًا، بأنّ الإصحاحات متوازية الأسلوب. هذا الإصحاح يتوازى مع الإصحاح الثاني. يشمل الإصحاح الثاني ثلاثة أشخاص: الله – يونان – الملاّحين. هنا يشمل شخصين فقط: الله – يونان.

يتناول هذا الإصحاح ثلاث لحظات: غضب يونان – اليقطينة – إجابة الله.

١- " وساء ذلك يونان كثيرًا، فغضب"

أيّ نبي يرى أنّ رسالة قد تجاوب معها السامعون يفرح جدًا. هذا لم يحدث ليونان، شيء عجيب! موضوعيًا، رسالة يونان كُلّلت بالنجاح الباهر. لقد قبل أهل نينوى الرسالة من فمه. كان ردّ فعل يونان الاستياء. ما هذا التناقض العجيب!

من جهة النظرة التحليليّة للنصّ، تشير كلمة " ra'ah" إلى الشرّ أو الشرور. يشير هذا التعبير أيضا في (يون ٣/ ٨،١٠) إلى السلوك الشرّير لأهل نينوى، أمّا في الآية (١٠) فيشير إلى الشرّ الذي أنذر به الله. في نصّنا هذا يتكرّر التعبير مرتين ويمكن ترجمته حرفيًا هكذا: " لقد استاء يونان استياءً عظيمًا". لقد تاب أهل نينوى عن شرورهم، لذلك أسقط الله الشرّ المعدّ لهم. والآن، الشرّ قد سكن يونان. هنا يقدّم لنا كاتب السفر سؤالاً: لقد هُزِمَ الشرّ المعدّ لأهل نينوى ببشارة يونان، بتوبة أهل نينوى؛ فمن يهزم الشرّ الذي سكن قلب يونان؟

إنّ ما حدث لأهل نينوى، بدلا من أن يشعّ في نفس يونان سرورًا عظيمًا، أثار فيه استياءً كبيرًا.

لقد استقر غضب الله في قلب يونان، ذلك الغضب الذي سعى أهل نينوى أن يرتفع عنهم.

٢. " وصلّى إلى الرّبّ وقال: " أيُّها الرّبّ، قُلتُ وأنا بعد في بلادي إنّك تفعل مثل هذا، ولذلك أسرعتُ إلى الهرب إلى ترشيش. كُنتُ أعلم أنّك إلهٌ حنونٌ رحومٌ بطيءٌ عن الغضب، كثير الرَّحمة ونادمٌ على فعل الشَّرّ""

من الغريب، مع غضب يونان، هذه الصلاة على لسانه. ها نحن في مركز السِفر. تقدّم، الآية التي نحن بصدد تحليلها، تفسيرًا وشرحًا لسلوك يونان النبيّ، من جهة؛ وسلوك الله من جهة أخرى، إنّها مفتاح السفر كله. نلاحظ في هذه الآية والتي تليها، أنّ يونان يضع نفسه في مركز صلاته، حيث في الآية الثانية للنصّ الأصليّ يستخدم يونان ضمير "الأنا" خمس مرّات (" قُلت / وأنا في/ بلادي/ أسرعت/ كُنت أعلم")، كذلك أربع مرّات في الآية الثالثة (" حياتي/ منّي/ خير لي/ أن أحيا")[٢٨٦].

أ. وصلّى إلى الرّبّ: يستخدم الفعل نفسه (صلّى palal) الذي استخدمه في (يون ٢/٢)، عندما صلّى من جوف الحوت، فإن كانت ثمار صلاة الأولى كما نرى الآن، فماذا ننتظر من الصلاة الثانية!

ب. قال: " أيُّها الرّبّ، قُلتُ وأنا بعد في بلادي إنّك تفعل مثل هذا؟" يتّضح من هذا النصّ، أنّ ما أساء يونان ليس توبة أهل نينوى، بالحريّ أنّ الله أوكل إليه رسالة أثمرت هذه النتيجة الصادمة له. يجب أن نعي جيّدًا، أنّ يونان ليس وثنيًا، بل شخص على دراية جيّدة بالله، وكيف يتصرّف الله

286. WOLFF , *Studi sul libro di Giona*, 151-152.

في مثل هذه الأمور. فلا داعي أن يبذل يونـان كلّ هذا المجهود، ومشقّة السفر على نينوى حتّى يعرف من هو الله– إله إسرائيل، كلّ هذه الأفكار في رأس يونـان وهو لا يزال في أرضه ومنزله.

ت. ولذلك أسرعت إلى الهرب إلى ترشيش. أخيرًا يتكلّم يونان ويقدّم أسباب هروبه، ويبرّر موقفه الغريب. كان يعرف مسبقًا بما سوف يحدث، كان يعرف مقدّما القصّة، لذلك فضّل الهروب إلى ترشيش بعيدًا، عن عيون الله التي تلاحقه، عن الرسالة غير المستحيلة، عن أن يعطي إجابة. إنّه الهروب السريع، هكذا يقول يونان مسرعًا: "لا أودّ أن أكون شريكًا لله، لذلك أهرب"[287].

ث. كنت أعلم أنك إله حنون رحوم بطيء عن الغضب. كثير الرحمة ونادم على فعل الشر. لقد استعان الكاتب الملهم في وصفه الرائع لصفات الله بنصّ (يوئ ٢/١٣)، والتي تنبع من خبرة خروج بني إسرائيل من أرض مصر، بالحريّ، مرتبطة مباشرة بما وصف "يهوه" به ذاته في لقائه بموسى في العلّيقة. بعد أن أخطأ الشعب تجاه "يهوه" في الصحراء بعبادة الوثن، تبعه تشفّع موسى لدى الله، ثمّ قبل تجديد الوعد مع "يهوه" ، عبّر "يهوه" عن جوهر ذاته بوضوح قائلاً: "ومرّ الرّبّ أمامه ونادى:" الرّبّ الرّبّ إلهٌ رحيمٌ حنونٌ، بطيءٌ عن الغضب وكثير المراحم والوفاء. يحفظ الرّحمة لألوف الأجيال، ويغفر الإثم والمعصية والخطيئة"[288].

إنّ ما اختبره الشعب، من جهة، وما كشفه " يهوه" عن ذاته، من جهة أخرى، قد ارتسم وطُبع بعمق في حياة الشعب الإسرائيليّ والأجيال التالية، والتي عبّر عنها الكتاب المقدّس كثيرًا بمرادفات عديدة[289]. لقد ظهر قلب الله في هذه النصوص بما لا يدع للشكّ مجالا، إلاّ أنّ ما فهمه الشعب منها حتّى هذه اللحظة هو أنّ الله إله إسرائيل فقط. بينما ما أدركه يونان بفطنته، إنّ كان الله صالحًا،

---

287. MORA, *Jonas*,21.

٢٨٨. خر ٣٤/٦–٧أ.
٢٨٩. تث ٥/٩–١٠؛ عد ٩/١٧؛ مز ٨٦/١٥؛ ١٠٣:٨/ ١٤٥:٨؛ إر ٣/١٢؛ ٣١:٢٠/ ٣٢:١٨.

فهو صالحٌ دائمًا ومع الجميع دون تمييز. هذه الحقيقة قد واجه يونان صعوبة كبيرة في أن يقبلها، راجع مثل الأب الرحيم[٢٩٠].

إن حاولنا، بالفعل، فهم الأسباب والدوافع التي حملت يونان على الهروب، يمكن إيجازها فيما يلي: أوّلاً، واجه يونان صعوبة أن يقبل إلهًا، يؤمن به، يغفر لأشخاص/ شعوب خارج شعبه المختار. ثانيًا، يعرف جيّدًا " يهوه "، يعرف أنّه سوف يغفر لأهل نينوى، ولهذا السبب، لماذا يضيع وقته ومجهود ليذهب وينادي بنبوءة عقاب لن تتحقّق؟ لماذا يكون أداة لمراحم الله غير المحدودة؟ ربّما هذا هو ما يزعج يونان حقًا: هو عبرانيّ، لا يريد أن يكون أداة لصلاح الله تجاه الوثنيّين. لم يرغب أن يكون وسيلة خلاص لهذا الشعب. فليفعل ذلك آخرون، ولا العبرانيّون، فهذا خيانة للتقليد العبرانيّ، إن جاز التعبير. ربّما لم يتخيّل أبدا توبة شعب نينوى المباشرة، إلاّ أنّ لم يشكّ مطلقًا في صلاح قلب الله. قلب الله الذي يشمل، العدل والمحبّة، اللذين يسكنان معا، والأفضل دائمًا المحبّة.

هذه هي حالة استياء يونان من هذا الإله، الذي خلّصه الله من جوف الحوت، والذي يسعى جاهدًا لخلاص شعب نينوى، يعلّق أحد الكتّاب قائلاً: "لا ينحصر إيمان شعب إسرائيل في فئة عرقيّة، بل هو إيمان منفتح- مشترك على جميع الشعوب. خبرة الخلاص نفسها التي عاشها الشعب، والتي وصلت إلى قمّتها في الخروج، تصبح إرثا مشتركا لجميع الشعوب. العهد نفسه ، الذي هو علامة ارتباط شعب إسرائيل الخاصّ بالله، يمكنه أن يصبح أكثر انفتاحا ليشمل مشاركة جميع الشعوب. السبب الأساسيّ في كلّ هذا هو حبّ الله المجّانيّ والرحيم"[٢٩١]. يظهر، في ختام هذه الرواية، الجانب المأسويّ ليونان النبيّ: الله، إلهه، لم يكن كما يريد أو يتصوّر، رفض يونان أن يضع ذاته بين يديّ هذا الإله. إنّ إله المفاجآت، إله يفوق حساباتنا وتوقّعاتنا، إله مباغت (صديق نصف الليل). يهرب ويخرج، هذا الإله المفاجئ، أكثر من جميع توقّعاتنا ومغامراتنا المحسوبة معه وبه.

---

٢٩٠. لو ١٥/١١-٣١.

291. G. L. CORTI, *Un profeta ribelle all'amore. Leggere e pregare il libro di Giona*, Paoline, Milano 1997,61.

يقودنا هذا النصّ إلى حقيقة الله، وحقيقة الإنسان في عمق دعوته وصعوبات التجاوب معها.

٣. "فالآن أيُها الرّب خذ حياتي منّي، فخيرٌ لي أن أموت من أن أحيا!"

رغب أنبياء عديدون من العهد القديم، في الكتاب المقدّس، في الموت، بدءًا من موسى النبيّ الذي سأل الله: "أمحُ اسمي من سفر الحياة"، بعد أن شيّد الشعب عجلاً من الذهب وعبده[٢٩٢]، أو عندما تدمّر الشعب في الصحراء، بسبب نقص الطعام (اللّحم)، فشعر موسى بثقل المسؤوليّة الملقاة عليه[٢٩٣].

لقد لعن إرميا النبيّ يوم ميلاده، أمام الصعوبات التي يقابلها في رسالته[٢٩٤]. هناك تقارب شديد بين نصّ يونان مع نصّ[٢٩٥]، الذي يقول في إيليا النبيّ "كفاني الآن يا ربُّ، فخذ حياتي. فما أنا خيرٌ من آبائيّ". هناك تشابه كبير، بالنظر إلى تدخّل الله مرسلاً الحوت وهنا يرسل الغربان[٢٩٦]، أيضا عندما يواجه الصعوبات التي تواجه أنبياءه. كذلك اليقطينة التي استراح يونان أسفلها[٢٩٧]، أيضا إيليّا[٢٩٨].

على أيّ حال، لا يمكننا أن نخفي نقاط الاختلاف العديدة، الجانب العجيب، والأساسيّ في شخصيّة يونان. كذلك الاختلاف الجوهريّ في الصفات التي يتميّز بها يونان وإيليّا. أيضا علاقتهما بالله مختلفة: استياء وحزن إيليّا بسبب عدم أمانة الشعب، بينما لدى يونان بسبب أمانة الله مع ذاته. يهرب يونان من وجه الرّبّ، بينما يبحث إيليّا عن الله[٢٩٩]. لا يطيع يونان، بينما يطيع إيليا[٣٠٠] ويمتلئ بالغيرة لأنّ رسالته لم تقبل، عكس ذلك يونان يطلب الموت لأنّ رسالته قُبلت!

---

٢٩٢. خر ٣٢/٣٢.
٢٩٣. عد ١١/١٥.
٢٩٤. إر ٢٠/١٤.
٢٩٥. ١مل ١٩/٤.
٢٩٦. ١مل ١٧/٤-٦.
٢٩٧. يون ٤/٦.
٢٩٨. ١مل ١٩/٤.
٢٩٩. ١مل ١٩/٨-١٢.
٣٠٠. ١مل ١٧/١٠.

التــــأمّـــــل

١. الخير المزعج

أمام تغيّر موقف الله تجاه شعب نينوى، يصف لنا النصّ موقف يونان قائلاً: "استاء استياءً عظيمًا". الفعلان، يجسّدان خيبة وإخفاق الشخص المرسل من الله. ينزعج يونان لأنّ الأمور صارت هكذا. يغيّر يونان من تصرّف إلهه تجاه الأمم، كعبرانيّ يريد أن يحصر خير الله في بني إسرائيل، والشرّ للأمم الأخرى. ربّما شعر يونان بأكثر من ذلك، شعر أنّ الله يلعب به. لقد أرسله الله لينادي بعقاب لم يتحقّق، لذلك خجل، وفقد ماء وجهه. هذا يوضّح أنّ سلوك يونان هو سلوك إنسانيّ محض، وليس سلوكًا إيمانيًا – يكفي التفكير في التمييز العرقي بين أهل الشمال وأهل الجنوب، كذلك التمييز الدينيّ ... أين السماحة؟ من السهل، وقت الرخاء، مشاركة الآخرين في الخير، يصعب ذلك وقت الأزمات (كلّ واحد ينظر لنفسه). هناك الغيرة والحسد تجاه الآخرين خاصّة الذين يقاسموننا أرزاقنا. عادة ما يزعجنا ويؤرقنا الخير الذي يحصل عليه الآخرون دوننا. يتركّز النصّ حول حفظ ماء الوجه، أي الخجل ممّا هو غير متوقّع أن يحدث لي. يؤرقنا أن نفقد ماء وجهنا. نفضلّ ألاّ نفقد ماء وجهنا، على أن يتحقّق الخير للآخرين. هكذا يتجلّى الشرّ الكامن داخلنا أمام رغباتنا الدفينة. ليس سهلاً قبول خير الآخرين، لأنّ لهذا الخير وجه التضحية، من حيث أنّه يقاسمني هذا الخير، راجع قصّة قايين وهابيل[٣٠١] . هل خير الآخر أهمّ وأبقى من ماء وجهي؟

٢. صلاة الأنانيّ

الصلاة المرتكزة على الذات. يتكرّر الضمير "الأنا" تسع مرّات في هاتين الآيتين، خلال لقائه مع الله. بدلاً من أن يصبح " الله" مركزًا للأحداث، يصبح "الأنا" مركزًا لها. تصبح بالتالي الإحساس المفرط للإنسان ، وخيبة الآمال، أو الشعور بالتأنيب هي مركز ومضمون الصلاة.

---

٣٠١. تك ٤/٣-١١.

نتذكّر صلواتنا، حيث كثيرًا ما نقف أمام الله كفيضان نهر نسكب فيه انفعالاتنا (نفضفض)، نلقي عليه أحمالنا، خاصّة الفاشلة منها، والتي لم نستطع تحقيقها. نُغرق الله بأحاديثنا، ولا نعطي مساحة له في هذا اللقاء الحواريّ. هكذا تتحوّل بسهولة صلاتنا إلى «منولوج» حديث مع الذات على المستوى النفسيّ (فضفضة)، ولا تصبح حوارا ولقاء مع الآخر « ديالوج» ، يكتشف فيه كلّ طرف الآخر ويغتني به. هكذا انتقد يسوع بشدّة صلاة المكثرين بالكلام "لا تُردِّدوا الكلام تردادًا في صلواتكم مثل الوثنيِّين، يظُنُّون أنَّ الله يستجيب لهم لكثرة كلامهم. لا تكونوا مثلهم، لأنَّ الله أباكم يعرف ما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه"[٣٠٢].

أمام هذه النوعيّة المزيّفة من الصلاة، نتساءل ما الغرض من الصلاة؟ في الواقع، الصلاة تغيّرنا، فبالصلاة ومن خلالها، نترك ذواتنا أمام التساؤلات التي تعصف بحياتنا، على مثال صراع يعقوب مع الله. على مثال يعقوب، نحن مدعوّون إلى التخلّي عن نزواتنا ورغباتنا؛ أن نتغيّر، أن نترك الله ينتصر فينا، أن نتبنّى سلوك الله. يحثّنا على ذلك الفيلسوف كيركيجار في مذكّراته قائلاً: "يظنّ المصلّي والعابد الحقيقيّ، أنّ العنصر الأساسيّ في الصلاة، والذي يحرص عليه، هو أن يصغي الله إليه. على أيّة حال، بالنظر إلى المفهوم الأبديّ للحقيقة، فإنّ الأوضاع تسير عكس ذلك. فإنّ الوضع السليم للصلاة، ليس في أن يصغي إلينا الله، بل في أن يجاهد ويثابر المصلّي للوصول إلى الدرجة أن يصغي هو إلى الله، وما يريد أن يقوله الله له. يحتاج المصلّي المبتدئ إلى كلمات كثيرة، لأنّ له احتياجات عديدة، بينما العابد الحقيقيّ يظلّ في وضع الإصغاء النقيّ"[٣٠٣].

٣. السلوك الاستدلاليّ

من الواضح أنّ يونان على معرفة تامّة بإلهه، يعرف التوراة. منذ بداية السفر، وهو على ظهر السفينة يعلن إيمانه، دون تردّد، بإله إسرائيل، في إطار عام.

---

٣٠٢. مت ٦/٧-٨.

303. *KIERKEGAARD, DIARIO*, I, VII A 56, 455.

بينما يعترف هنا، دون شكّ، بإله التاريخ، الذي هو مركز خبرة الخروج:" أعلم أنّك إله حنون، رحوم، بطيء عن الغضب".

لا تتمحور المشكلة لدى يونان، في المعرفة النظريّة أو العمليّة عن الله. إنّما المشكلة هي في أنّ سلوك يونان لا يتماشى مع إيمانه، بمعنى أنّ حياته، سلوكه لا ينبع من موقف إيمانيّ أصيل ولا يتّفق معه.

نعم يؤمن، في الوقت نفسه، أنّ سلوكه وحياته لا يحملان توابع هذا الإيمان. هل يمكن أن نتحدّث عن أنفسنا كما نتحدّث عن يونان؟ كثيرًا ما نحمل داخلنا بذرة عن الإيمان، إيمان معلّق لا يستطيع أن يلمس الواقع وتفاصيل معترك الحياة. يُجمل اللاهوتيّ كارل رانر قائلاً:" يبدو أنّ الله والشيطان يتمركزان في تفاصيل الحياة، بينما تظلّ عظاتنا الكنسيّة عموميّة، شموليّة لا تلمس الواقع"[٣٠٤].

أحيانًا، وبسهولة نفكّر قائلين "لا أفهم، لكن مع الزمن سوف أتأقلم"، بينما أحيانًا أخرى، وبصورة اعتياديّة، دون وعي" أفهم، ولن أتأقلم". كأنّ الله يريد أن يدخل معنا في علاقة يطلق عليها" التشارك أو التقاسم في الوقت أو الحياة – time shire ".

مع الوقت، نكتشف داخلنا صعوبات تعيق تجسيد إيماننا أو صلاتنا بكلّ توابعها العمليّة في حياتنا اليوميّة. هذا ما عبّر عنه البابا تشللستينو السادس قائلاً: "نحن كثيرًا ما نؤمن بسهولة وتلقائيّة – بسبب الجهل والكسل – يكفينا أن نحضر القدّاس، ممارسة الطقوس، أن نمارس سرّ المصالحة بين الحين والحين، ونضع نقودا قليلة في صندوق الفقراء، نحافظ على بعض الوصايا خوفًا من العقاب. أيّها المسيحيّون أقول لكم، ، إنّ الله يطلب منّا أكثر من ذلك. أكرّر، أنّ مسيحيّتنا الشكليّة، المعتادة والتقليديّة، ليست المسيحيّة الحقيقيّة، هي ظلّ، قناع، شريحة، أو مسيحيّة مجهضة، أو مسيحيّة الضعفاء الكسالى والفاترين،

---

304. Strukurwandel 85, 82 (cit.da W. BÜHLMANN, in *La terza Chiesa alla porte*, Paoline, Roma 1974, 143).

أو المنافقين، أو مسيحيّة المعمّدين الفريسيّين. الله يريد منّا الأكثر من ذلك. يريد أن يكون قلبنا كلّه مسيحيًا، كذلك أفكارنا، حياتنا كلّها مسيحيّة"[٣٠٥].

لحسن حظّنا، يحتمل الله الإنسان السيّئ ، وليس المؤمن السيّئ، يعلّق على ذلك القدّيس إيسدورُس قائلاً: "تحتمل الكنيسة بصبر الأشخاص السيّئين، بينما ترفض المؤمن السيّئ" . في الواقع، كلّ هذا يصبّ في صالح يونان[٣٠٦].

٤. الله لا يُدحض

إن كان هناك شيء أكيد، هو أنّ الله أمين للغاية نحو ذاته، "الله هو الله" . يمكن القول إنّ الله يصل إلى عمق أعماقنا، ولا شيء يهرب منه، أفكاره وطرقه تفوقنا. إنّه إله المفاجآت، يتخطّى التوقّعات البشريّة. هكذا الله بالنسبة إلى يونان ولنا أيضا.

حقًا الله لا يحدّ. مستعدّ دائمًا أن يفاجئنا، أن يدهشنا، يهرب من أيادينا. وذلك لحظّنا الوافر، وفيض نعمته! إلاّ أنّ هناك عنصرًا آخر لا يمكن تجاهله، ألا وهو أنّ الله، مجملا، هو المتوقّع والمنتظر. إن تتبّعنا تطوّر علاقة الله بالإنسان، والتي تظهر ماهية الله، في الكتاب المقدّس، تصل إلى قمّتها على لسان يوحنّا الإنجيليّ: "الله محبّة"[٣٠٧]. تتجلّى هذه الحقيقة الكبرى تدريجيًا في الكتاب المقدّس من خلال محبّة الله وعنايته بشعبه، رغم عدم الأمانه. ثمّ يضيف قفزة نوعيّة، تفوق العقل البشريّ: إنّ هذا الإله الذي يحبّ شعبه، يحبّ أيضا الشعوب الأخرى، وقد اختار شعب إسرائيل ليكون أداة حيّة وعجيبة في يد الله، من أجل خلاص الشعوب الأخرى، وإعلان محبّته لهم. يجعل الله هذا الحبّ مُعلنًا وحقًا لجميع الشعوب.

تلك هي الحقيقة التي اصطدم بها يونان، حقيقة الحبّ المجّانيّ، وكانت حقيقة مُفجعة ومُخيّبة للآمال. كان صعبًا على يونان أن يدرك إلهًا بهذه الحقيقة، إلهًا

---

305. G. PAPINI, Lettere agli uomini del Papa Celestino Sesto, Vallecchi, Firenze 1946, 21-22.
306. SANT'ISIDORO DI SIVIGLIA, *Sententiae*, 1, I, c, 16, n. 3: PL 83, 571 B, cit. da H. DE LUBAC, in *Méditation sur l'Église*, Aubier, Paris 1953, 97.

٣٠٧. ١يو ٤/٨، ١٦.

لا يصنع الخير للشعوب الوثنيّة فقط، بل أكثر من ذلك يستخدم يونان لإظهار رحمته ومحبّته وخلاصه لهم.

هناك حدود لكلّ شيء! هكذا أيضا الحبّ بالنسبة ليونان. وكان الله يعلم سلوك يونان هذا.

قبول هذه الحقيقة "الله محبّة" في حياتنا، لا يعني أن نحيا بالحبّ فقط، بل نُترك أن نُحَبّ حتّى الأعماق، أيضا حينما نكتشف ذواتنا كأهل نينوى،خطأه بعيدين عن الله. يعني أيضا، كما ليونان، أن نقبل لنكون ذواتنا، وسط آلاف الأشياء التي نعملها، كشهود وأدوات حيّة لمحبّة الله.

الحبّ بالنسبة لنا، كما هو لله، هو المخاطرة، مغامرة أن نصبح غدًا مختلفين عن البارحة، مختلفين باختلاف الله ذاته، الذي يدهشنا دائمًا ويفاجئنا بمحبّته الفيّاضة والمجّانيّة.

« مناجاة »

يا ربّ، حقًا،

كثيرًا، ما نكون نحن مركز صلواتنا.

أيضا، لك كلّ الحقّ أن تكون جزءًا من صلواتنا!

ربّما، لأجل ذلك،

بالرغم من صلواتنا،

يصعب تغيير حياتنا.

عادة، ما يزعجنا الخير الذي يصيب الآخرين.

تحضر لنا، يا ربّ، بطريقة غريبة، تفوق توقّعاتنا.

ربّما،

إذا وضعناك مركزًا لصلاتنا،

أعطيناك الوقت الكافي لتشرح لنا هذا الحدث،

ما هي الأشياء التي تملأ قلبك وتشغل فكرك،

ما هو وجهك الحقيقيّ.

ربّما يكون هذا ما لا نبغي معرفته،

لأنّ عند هذه المرحلة، ينبغي أن نتغيّر:

أن نُغيِّر سلوكنا،

أن نسطر ذلك في سيرة حياتنا المتعرّجة.

وهذا صعب جدًا.

يا ربّ، ساعدنا!

لأنّه معك، يصير ذلك ممكنًا.

آمين.

تساؤلات

١. هل تسكن داخلنا مشاعر الغيرة، والحسد؟ هل أشعر بسعادة لخير الآخرين؟ أم أصبح عائقًا لهذا الخير، حتّى لا أفقد ماء الوجه؟

٢. ما المساحة التي يشغلها الإصغاء إلى الله في صلاتي؟ هل أعي أنّ الصلاة هي نوع من الجِهاد الروحيّ، ينتصر فيه الله المنتصر دائمًا؟ هل الصلاة هي الزمن الذي أفرغ فيه ذاتي لأترك مساحة الله؟

٣. هل أقبل بسهولة المسافة التي بين أفعال الإيمان وحياة الإيمان؟

٤. هل أحمل في عقلي بعض المبادئ الإنجيليّة، أستخلص منها سلوكا ملتزما في أوضاع حياتي المتنوّعة؟

٥. متى نفاجأ بصلاح الله تجاه الآخرين؟

٦. أمام محبّة الله، كيف أعيش في حياتي الواقعية توابع هذه الحقيقة، خاصّة تجاه الآخرين؟

٧. إلى أيّ مستوى أقبل وأشعر بأنّ أكون وسيلة حبّ الله تجاه الآخرين؟

الفصل الحادي عشر
الرسالة تغيِّر الحياة

(يون ٤/٤-١١)

"مناجاة"

ها قد وصلنا،

يا ربّ،

إلى نهاية هذه المسيرة الروحيّة،

نأتي إليك، من جديد، طالبين،

أن تهبنا كلمتك الشافية.

أنت تعرف:

أنّنا نريد الشفاء،

اشفِنا يا ربّ من الداخل.

لن نهرب من الطبيب،

ولا من الدواء.

قل لنا كلمة واحدة،

كلمة تخلّصنا.

هذا ما نأمله،

هذا ما نترجاه،

هذا ما نؤمن به.

آمين.

نص (يون ٤/٤-١١)

" فقال له الرّبُ:" أيحقُّ لك أن تغضب؟" وخرج يونان من المدينة، وجلس شرقيَّ المدينة ونصب هناك مظَلَّة وجلس تحتها في الظّلّ، حتّى يرى ما يصيب المدينة. فأعدَّ الرّبُّ الإله يقطينة فارتفعت فوق يونان ليكون على رأسه ظلّ ينقذه من الأذى، ففرح يونان ليكون باليقطينة فرحًا عظيمًا. ثم أعدَّ الله دودةً عند الفجر في الغد، فضربت اليقطينة فيبست. فلمَّا أشرقت الشَّمس أعدَّ الله ريحًا شرقَية حارَّةً، فضربت الشَّمس على رأس يونان فأغمي عليه، فطلب الموت لنفسه وقال : "خير لي أن أموت من أن أحيا". فقال الله ليونان :" أيحقُّ لك أن تغضب من أجل اليقطينة؟" فأجاب يونان : "يحقُّ لي أن أغضب إلى الموت". فقال الرّبُّ : "أشفقت أنت على اليقطينة الّتي لم تتعب فيها ولا ربَّيتها، وإنمّا طلعت في ليلة ثمَّ هلكت في ليلية، أفلا أشفق أنا على نينوى العظيمة الّتي فيها أكثر من مئة وعشرين ألف نسمة لا يعرفون يمينهم من شمالهم، فضلا عن بهائم كثيرة؟"

لقد قرأنا آنفًا عن مرارة وامتعاض يونان. والآن نتناول إجابة الله الساخرة والمملوءة دعابة.

١- " فقال له الرّبُ: "أيحقُّ لك أن تغضب؟"

هكذا يبدأ الرّبّ، كعادته مع يونان، بأسلوب تربويّ رائع ممزوج بروح الدعابة. يبدأ الله بطرح سؤال ليصل به تدريجيًا إلى جذور المشكلة، فلا يعطي إجابة، بل يثير تساؤلا، واثقًا في قدرة يونان على حلّ مشاكله، وأن يعطي إجابة عن تساؤلات الربّ.

كيف لا يتذكّر يونان الخير الذي صنعه الربّ معه؟ لماذا كلّ هذه الغيرة؟ لماذا يلوم الله على رحمته وصلاحه تجاه شعب نينوى؟ لماذا يرفض سخاء الله تجاه الجميع؟

٢- " وخرج يونان من المدينة، وجلس شرقيَّ المدينة ونصب هناك مظلّة وجلس تحتها في الظلِّ، حتّى يرى ما يصيب المدينة"

لا يقبل يونان الحوار- كعادته- الذي يبادر به الله. فيعمل يونان عكس ما يطلبه الله. بدلاً من أن ينطق بكلمة أو يفكّر لحظة، يطلق لرجليه العنان. يستسهل الحركة بالأقدام، أكثر من استخدام القلب أو الفكر! في بداية هذه المغامرة يهرب يونان إلى ترشيش، يهرب تاركًا نينوى. ما يهمّ يونان أن يأخذ مسافة من نينوى، لم تعد المكان المفضّل له. يخرج من المدينة، آخذًا جانبًا ليشاهدها عن بعد.

أمام قرب تنفيذ العقاب على سادوم، بدأ أبرام يتشفّع من أجلها[٣٠٨]. هكذا ذهب لوط تاركًا سادوم قبل أن تهدم[٣٠٩]، ولم يشمت أو يسعد لهلاكها. هكذا لم يسلك يونان. ربّما كان يترجّى أن يتمّم الله، أخيرًا، عدالته. أو ببساطة، لقد تاب شعب نينوى سريعًا، وبالتالي سريعًا ما يعود من مرّة ثانية إلى خطيئته. هكذا أعدّ نفسه لرؤية مشهد دمارها العجيبة من مكان مميّز. بنى مظلّة تحميه من حرارة الشمس، وتسلّح بالصبر. أمام مشهد الدمار، لا مانع من تحمّل الحرّ الشديد!

يمكننا مقارنة شخصيّة يونان في هذا المشهد مع شخصيّة قايين في سفر التكوين. امتلك كليهما مشاعر الغضب[٣١٠]؛ هربا من وجه الله، وأقاما شرقًا[٣١١]. سأل الله كليهما عن سبب الغضب[٣١٢]. هرب كلاهما من الموضع الذي أظهر فيه الله رحمته وصلاحه.

٣- " فأعدَّ الرّبُّ الإله يقطينة، فارتفعت فوق يونان، ليكون على رأسه ظلٌّ ينقذه من الأذى، ففرح يونان باليقطينة فرحًا عظيمًا"

لم ييأس الله أو يحبط، ولم يغضب. يبدأ محاولاته، مجدّدا، ليحمل يونان على التفكير والتعقّل.

---

٣٠٨. تك ١٨/٢٣...ألخ.
٣٠٩. تك ١٩/١٦.
٣١٠. تك ٤/٥.
٣١١. تك ٤/١٦.
٣١٢. تك ٤/٦.

أ. فاعدّ الربّ الإله يقطينة فارتفعت فوق يونان

إذا تأمّلنا النصّ جيّدًا، لقد أعدّ يونان مظلّة، وأعدّ عدّته، آخذًا قراره. فما الداعي للخوض في هذه التفاصيل، التي لا تخدم هدف الرواية. إلاّ أنّه في الواقع، نرى في اليقطينة، مبادرة الله الجديدة للدخول في علاقة تواصل مع يونان، فمع يونان الله لا يتعب أبدًا.

مرّة أخرى تظهر الكائنات المطيعة لله (نباتات، وحشرات، وحيوانات): كما كانت سابقًا الرياح، والنوّة، والحوت، واليقطينة، والدودة. لقد أعلن يونان في (يون ١/٩) أنّه يعبد الله ويخافه: " أتّقي الربّ إله السّماوات الّذي صنع البحر والبرّ"، هذا الفعل ينبغي أن يثير شيئًا ما.

من الملاحظ أيضا، تكرار الفعل " أعدَّ " أربع مرّات في هذا السفر: أعدّ الله حوتًا[٣١٣]؛ أعدّ الله دودة[٣١٤]؛ أخيرًا أعدّ الله ريحًا شرقيّة حارّة[٣١٥]؛ أعدّ الله يقطينة[٣١٦]. كلّ ما سبق يشير إلى تدخّل الله لصالح يونان.

دار نقاش طويل حول طبيعة نبات اليقطينة (نبات الخروع أو القرع)، ما يهمّنا في هذا الإطار هو أنّه نبات عريض الأوراق، تكفي لتظليل وحماية يونان من حرارة الشمس.

ب. ليكون على رأسه ظلّ ينقذه من الأذى

ليس من المنطقيّ الاعتقاد أنّ الهدف الوحيد لله من اليقطينة هو حماية يونان من حرارة الشمس. يظهر ما يلي ذلك الغاية الأخيرة من تدخّل الله، ألا وهي شفاء خادمه يونان من مرضه، من غضبه العميق. تعود من جديد كلمة " شرّ"، الشرّ الذي لم يتمّمه الله تجاه نينوى، الذي أثار غضب واستياء يونان، لا يزال قابعًا في داخله. يريد الله تحريره من هذا الغضب الشديد الذي تملّكه. هنا يحضر الله ويعمل كالطبيب الشافي من أجل شفاء رسوله.

---

٣١٣. يون ٢/١.
٣١٤. ٧/٤.
٣١٥. ٨/٤.
٣١٦. ٦/٤.

ج. ففرح يونان ليكون باليقطينة فرحا عظيما

أخيرًا فرح يونان. الفرح هو نتيجة اهتمام وعناية **الله** بمؤمنيه. إلاّ أنّ يونان لم يفرح بسبب رغبة **الله** في شفائه من الغضب الذي سكن فيه، ولم يفكّر أساسًا في ذلك! فرح فقط بهذه النبتة العجيبة التي حمته من حرارة الريح الشرقيّة.

بهذا الأسلوب الأدبيّ الساخر، يقدّم لنا الكاتب حالة يونان، الذي أبدى استياءً بالغًا أمام خلاص أهل نينوى، بينما يفرح فرحًا عظيمًا بسبب مُلطّف شخصيّ خارجيّ!

٤- " ثمّ أعدَّ الله دودةً عند الفجر في الغد، فضربت اليقطينة فيبست"

المفاجآت تتوالى ولا تنتهي! الآن وقد حصل يونان أخيرًا على بعض الفرح والسلام، كلّ شيء ينهار وينتهي سريعًا كما بدأ.

قبل أن يبدأ نهارًا جديدًا، يأخذ **الله** المبادرة، من جديد، ويعُدّ شيئًا جديدًا (دودة) "لصالح يونان". إنّها المرحلة الثانية لعلاج يونان. كما ظهر النبات ونما سريعًا، كذلك يختفي. كذلك الفرح غير المؤسّس على دوافع وجذور عميقة، تعصف به الرياح بأسباب بسيطة! دودة صغيرة تهدم أسباب الفرح العظيم.

٥- فلمّا أشرقت الشّمس أعدَّ الله ريحًا شرقيّة حارّةً، فضربت الشّمس على رأس يونان فأغمي عليه، فطلب الموت لنفسه وقال : "خير لي أن أموت من أن أحيا".

يقدّم الكاتب التفاصيل بعناية ودقّة، في الغد، قبل الفجر، فلما أشرقت الشمس... هناك تنام يقودنا نحن القرّاء ويأخذ ألباب مشاعرنا وأفكارنا، مندهشين، منتظرين مًا سوف يحدث.

أ. فلمّا أشرقت الشمس أعدّ الله ريحًا شرقيّة حارّة

يتدخّل الله مستخدمًا الطبيعة (ريح شرقيّة حارّة) من أجل صالح يونان: كما كانت الرياح على البحر في (يون ١/٤)، هنا تظهر الريح على اليابسة. سواء في هذا النصّ أو السابق ، الله يريدنا أن نختبر ما كان على يونان أن يحمله من مشاعر تجاه شعب نينوى. إلاّ أنّ يونان لم يشعر أو يفكّر في ذلك.

ب. فضربت الشمس على رأس يونان فأغمي عليه

ما يجب أن يقال: مسكين يونان، كلّ الأشياء تنهار فوق رأسه. يبدو أنّه أصبح غير قادر على أيّ شيء، بكلّ المعاني: بسبب الحرّ القاتل، كذلك كلّ شيء يسير في الاتجاه المعاكس.

ج. فطلب الموت لنفسه وقال: "خير لي أن أموت من أن أحيا"

أمام كلّ هذه الأحداث لا يزال ردّ فعل يونان كما كان أولا. طلب يونان من الله الموت (يون ٤/٣)، مستخدمًا نفس تعبير إيليا النبيّ (١مل ١٩/٤). الاختلاف الشاسع بين الآيتين (٣ و ٨): طلب يونان الموت في الآية (٣) بسبب رحمة الله، لكن طلب الموت في الآية (٨) بسبب أقلّ نبلاً، ألا وهو الحرّ الشديد غير المحتمل.

٦. فقال الله ليونان : "أيحقّ لك أن تغضب من أجل اليقطينة؟" فأجاب يونان : "يحقّ لي أن أغضب إلى الموت"

يبدأ الله، من جديد، حوارًا مع يونان مستخدمًا كلمات الآية (٤)، مع إضافة ذات مغزى. في الآية (يون٤/٤) يتمحور السؤال حول المرارة التي شعر يونان بها أمام رحمة الله تجاه أهل نينوى، بينما هنا يتمحور السؤال حول المرارة التي شعر بها يونان، بسبب موت نبات اليقطينة نتيجة حرارة الشمس والدودة.

غضب يونـان في كلا الموقفين، إلاّ أنّ الأسبـاب مختلفة: غضب بسبب الخير الذي حصل عليه أهل نينوى، ثمّ بسبب الشّر الذي لحق بهذا النبات. هنا بسبب موت نبات، وهناك بسبب عودة الحياة لشعب بأكمله. حقيقتان مختلفتان تمامًا وضعتا على المستوى نفسه ، بالنسبة ليونان. ولكن ما أهمّيّة ذلك! بالنسبة ليونان الإنسان ذي النظرة الضيّقة والمحدودة.

بالرغم من ذلك، لقد قبل يونان الحوار مع الله ولم يهرب كعادته. مستعدّ أن يطلب الموت بسبب موت نبات اليقطينة! إلاّ أنّه للأسف، لم ير عدم الانسجام والتنافر في طلبه، ولا التناقض في خلفية سؤال الله.

أ. فقال الرّبُ : " أشفقت أنت على اليقطينة التي لم تتعب فيها ولا ربّيتها، وإنّما طلعت في ليلة ثمّ هلكت في ليلية "

قاربت الرواية على الانتهاء، فكما بدأت بالله الذي يتكلّم. كذلك نؤكّد في الخاتمة: إنّ كلمة الله تستقبل وتفحص كلمات البشر.

الربّ مُرب صالح، ينطلق من خبرة يونان التي يعيشها، ليساعده على فهم ما اختبره، ينطلق من قلب الإنسان ليساعده على فهم قلب الله. أليس الإنسان صورة الخالق؟

أمام حزن يونان على موت اليقطينة، يذّكر الله يونان بشيئين: أولا، يونان لم يصنع شيئًا لليقطينة: لم يتعب فيها،أو يزرعها، أو يرعها. ثانيًا، لم تكن لهذه النبتة قيمة عالية: فكما نشأت هكذا ماتت سريعًا. فبالرغم من قصر عمرها (يومًا واحدًا)، وهشاشة العلاقة، تألّم يونان جدًا لفراقها. كان مهتمًا للغاية بنبتة " وليدة يوم واحد ".

ب. أفلا أشفق أنا على نينوى العظيمة التي فيها أكثر من مئة وعشرين ألف نسمة لا يعرفون يمينهم من شمالهم، فضلاً عن بهائم كثيرة؟"

ها نحن أمام الآية الأخيرة. الله يرفق ويشفق على نينوى، كما شفق يونان على اليقطينة.

تتميّز مدينة نينوى بميزتين: التعداد السكانيّ، والوضع الأخلاقيّ. فمن جهة، نينوى مدينة عظيمة يصل تعدادها أكثر من مائة وعشرين ألف نسمة، إنّه عدد رمزيّ، يشير إلى عدد غير محدود من البشر. من جهة أخرى، يضيف الكاتب ملاحظة جديرة بالاهتمام، تتعلّق بأشخاص " لا يعرفون يمينهم من شمالهم".

ينقسم المفسّرون إلى مجموعتين، في تفسير هذه الآية. تتبنّى المجموعة الأولى الرأي الخاصّ بأطفال لم يصلوا بعد إلى سنّ الرشد، سنّ التمييز. المجموعة الثانية تتبيّن الرأي الخاصّ بمجموعة من الأشخاص معدومي القدرة على التمييز بين الخير والشرّ، واختيار الخير، من شعب نينوى. يستخدم القدّيس جيروم التفسيرين في تفسيره لهذا السفر. فيما يبدو لي، أتبنّى التفسير الثاني. فإن كان ذلك صحيحًا، كما يبدو، فإنّ الله لم يخلّص شعب نينوى لأنّهم أبرار. إنّما يفعل ذلك، موجّها كلامه إلى يونان، لأنّه الله فقط، الله هو الصالح!

تظهر، من جديد، الحقيقة الأكيدة، المعلنة في السفر، وهي رحمة الله التي تشمل الجميع، البشر والكائنات الأخرى[٣١٧]، برحمته يخلّص الخليقة كلّها. الله الصالح، للجميع ولأجل الجميع.

٣١٧. مز ٣٦/٧: ١٤٥/٨-٩.

التــــأمّـــــل

ها قد وصلنا إلى نهاية سفر يونان. نحاول أن نقدّم بعض التأمّلات النابعة من هذه الآيات الختاميّة. يلعب الله بآخر الأوراق وينتصر في النهاية.

١.الله المربّي

يكشف الله، في هذه الآيات، هدفه التربويّ. يعرف جيّدًا إلى أين يقود يونان. يقدم الله ليونان أسئلة عديدة، ليس لأنّه لا يعرف إجابتها، بل ليساعد يونان إلى الوصول إلى الإجابة. يقوده تدريجيّا إلى اكتشاف الحقيقة الكامنة في قلب الله.

الله لا يتعامل مع يونان كلعبة (ماريونت) يحرّكه بالخيط حيث يريد. يتعامل الله مع يونان كإنسان حرّ، خليقة يديه، قادر على الفهم والرغبة.

لا شكّ أنّ ما يملأ قلب الله هو خير الإنسان، إلاّ أنّ في الوقت نفسه، لا يضع هذا الخير في قلب الإنسان قسرًا، حتّى وإن كان هو الخير الأوحد للإنسان. له الحرّيّة أن يختار بعد النظر أو قصره (البصيرة/ عدم البصيرة)، قلبًا كبيرًا أو صغيرًا. لا أن يجد الخير أو الشّر فقط، بل أن يستثمرهما أيضا.

يدعونا، هذا الأسلوب الذي يستخدمه الله معنا، إلى التأمّل في الأساليب التي نستخدمها نحن مع الآخرين، لمساعدتهم إلى الوصول للحقيقة والخير، أو على الأقل ما نعتقد أنه الحقيقة.

هذا الأسلوب التربويّ عبّر عنه فلاسفة اليونان، أمثال سقراط وأفلاطون، تحدّثوا عن

" فنّ التوليد": الفنّ الذي يستخدم الأسئلة ليخرج الحقيقة من الذات.

في الواقع، الإجابات الفضلى هي التي يستخرجها الإنسان من ذاته بعد معاناة. قد يساعدنا الآخرون في صياغة الحقيقة، إلاّ أنّ الخلاصة النهائيّة هي في النهاية نابعة من الذات.

الإجابات القادمة من الخارج كحلول، تظلّ قصيرة المدى والمفعول. فبمقدار المجهود المبذول تقاوم الزمن! بمقدار ما نلدها في العالم ترافقنا طيلة الزمن! لقد فهم نيتشه ذلك جيّدًا " ابنك ، عملك، فقط الذي تحبه حبًا عميقًا "[٣١٨].

تحتاج ولادة ابن في العالم، إلى مجهود مضنيّ، يتطلّب، زمنًا، صبرًا، عناية. هكذا فعل الله معنا ولا يزال، ولكن ليس هذا ما نفعله مع الآخرين. نرغب أن يفهم الآخرون سريعًا، دون أن نفقد زمنًا، دون عناء أو جهد مبذول، نريد أن يجدوا حلولاً سريعة، دون أيّ خطأ أو انحراف. إلاّ أنّه بدون الزمن لا يمكن أن نبني شيئًا، ولا الحقيقة في الإنسان، ولا حقيقة الإنسان " الزمن يؤصّل في الإنسان الجذور".

٢. النعمة والخطيئة

إذا أمعنّا النظر والتأمّل في هذه الرواية، نكتشف أنّ كلّ شيء بدأ مع خطيئة شعب نينوى. يريد الله خلاص هذه المدينة العظيمة من خطيئتها. فمن خلال خطيئة أهل نينوى، يستطيع يونان أن يخطو خطوات أبعد لفهم أعمق وأفضل لإلهه. إنّها قصّة بشر عديدين، الذين يحيون حياة من دون الله، يختبرون الذي لمسهم في العمق. في الواقع، من يلمس أعماقه يلمس الله الساكن في الأعماق، يعبر عن ذلك هانس فون بالتسر: "لا يمكن أن تسقط إلى أسفل دون أن تجد المسيح، الذي هو في قاع ذاتك ليحمي سقوطك"[٣١٩].

هذه الرواية هي تاريخنا، تاريخ ضعفنا وشهواتنا. فكلّما بعدنا عن الله شعرنا أكثر بالاحتياج إليه.

---

318. F. NIETZSCHE, *Così parlò Zarathustra*, Adelphi, Milano 1976, II, 195.
319. H. U. Von balthasar (cit. in *Per educare alla fede*. 5 *Adulti e riconciliazione*. Supplemento a *Settimana* 12: 18 marso 1984, 9).

إنّها خبرة القدّيس بطرس: خيانة المعلّم، ثمّ التعويض عنها من خلال الاستشهاد في سبيل الربّ. تلك هي المفاجأة العظمى! لم يوجد شيء في المسيحيّة لا يقود إلى الخير. أيضا الأشياء الأكثر سلبية، الخطايا الأشد شناعة، قد تصبح في يديّ الربّ أداة عجيبة تقودنا إليه. الله قادر أن يسطر خطوطًا مستقيمة من خلال خطوطنا المتعرّجة، لا شيء يهرب من يديّ الله. كما كانت حياة يونان، هكذا حياتنا، يستخدم الله أيضا الأدوات البالية ليصنع منها الروائع، يستخدم أيضا الخطيئة ليهب النعمة[٣٢٠]، يا لَعظمة الله! " كلّ شيء هبة من الله"[٣٢١]، لقد تحوّل عار موت الصليب إلى نبع حياة (لديك لا تظلم الظلمة).

٣. يكفي القليل في الحياة

ولّد نموّ نبات اليقطينة في يونان " فرحًا عظيمًا "، بينما ولّد موتها " حزنًا عميقًا لدرجة أنّه تمنّى الموت ". يقدّم لنا الكاتب، في هذه الآيات القصيرة مشهدين متباينين في المشاعر، يجعلنا من خلالهما نختبر ونلمس بأيدينا، أنّه يكفي القليل في حياتنا للشكر والقليل أيضا لكي نلعن الحياة، قليل لنفرح، قليل لنبكي.

نخرج من هذا النصّ بقيمتين تعليميّتين:

الأولى: فنّ معرفة تذوّق الأشياء الصغيرة. كثيرًا ما نبحث عن أشياء أو أحداث عظمى تعطينا فرحًا عظيمًا (مناسبات اليوبيل مثلا). الواقع يؤكّد أنّ هذه المناسبات ليست بكثيرة في حياتنا. بينما تمرّ بنا، دون أن نّعي، أفراح صغيرة يوميًا، يمكنها أن تضيء حياتنا بالفرح والغبطة. أفراح بسيطة ثمرة لقاءات صادقة، ابتسامات مهداة منثورة على جانبي الطريق، مساعدات مقدّمه بسخاء وهمّة. أفراح تولد من كلمة تخاطبنا بطريقة خاصّة، تنير وتملأ حياتنا فجأة، تشملنا وتجعلنا مركز اهتمامها. في بعض الأحيان، نصل إلى درجة الخوف من الفرح بهذا الأسلوب، وكأنّ الفرح في الحياة المسيحيّة شيئ زائد عن اللزوم. " لا يستطيع إنسان أن يحيا دون فرح" (إليزابث القديس بطرس)، " [هناك

---

320. G. GREEN, *La puissance et la gloire*; Robert Laffont, 1948, 8.
321. G. BERNANOS, *Diario di un curato di campagna*, Mondadori, Milano, 1965, 274.

أشخاص، في الواقع، يعتبرون الفرح ممنوعا. عندما يتذوّقون قدرًا من السعادة يشعرون فورًا بالذنب، ويربطون بهذه الطريقة بين هذه الفضيلة وكلّ ما هو تعب وغالي الثمن. لا يتذوّقون فرح الله. وينسون أنّنا مدعوّون من الله لحياة التطويبات في ملئها، بينما لا نستطيع الحياة على الأرض دون فرح. هكذا يؤكّد القدّيس توما الاكوينيّ " لا يستطيع أحد أن يصمد طويلا أمام الحزن" (٢كو١٣/١١). إذا لم نتذوّق أيّ فرح في الحبّ وخدمة الله، أو سحرتنا وفتنتنا أفراح إنسانيّة بحتة أخرى، سقطنا في اللامبالاة. الفرح هو تمام وثمرة كلّ عمل فاضل، من هذا تنبع، وتكون مقياسا أكيدا لكلّ عمل صالح" (الخلاصة اللاهوتيّة). نحتاج بين الحين والحين أن نتذوّق فرح الله، أن نتذوّقه أيضا في أعمالنا الصالحة. هذا الفرح غذاء لأنفسنا، يبثّ فينا قدرة رجاء تجاه المستقبل، أيضا هو راحة. يقول القدّيس توما الاكوينيّ: "السرور هو راحة للنفس". الفرح هو ثمرة الالتزام بالتطويبات[[322]]، أو على الأقلّ لا يستطيع أحد أن يحيا حياة جيّدة دون فرح.

الثانية: يجب أن نتذكّر هواننا وضعفنا. يكفي القليل، على مثال الدودة كما حدث مع يونان، حتّى نفقد سلامنا، وننطلق كالبركان، وتصير مخطّطاتنا وآمالنا وطموحاتنا رمادًا. أشياء جميلة رائعة، أُعدّت بعناية، خدمات منظّمة، تقدّم بسخاء، استعداد لله وللإخوة دون أحكام مسبقة، كلّ هذا يذهب مع الريح كالرماد، بسبب أشياء لم نتوقّعها وتفاجئنا. هكذا نختبر داخلنا أنّه يكفي ذرّة من الرمال كي تعطّل المسيرة نحو الله، بسبب نقص المرونة.

مجدّدا، نلمس بأيدينا، أنّ كلّ شيء لا يتوقّف علينا، فلسنا أسياد الحياة، ولا أرباب حياتنا ولا تاريخنا الصغير.

عندما نختبر أنّ كلّ شيء ينهار بين أيدينا، في هذه اللّحظة بالذات، نحن مدعوون للدخول إلى العمق، إلى ما هو أساسيّ ، وإلى من هو أساسيّ بالنسبة

---

322. E. SAINT-PIERRE, *Harmonie et sérénité*, Éditiona Sanit- Paul, Paris- Fribourg 1973, 48.

لنا: يسوع المسيح، هو فقط سيّد حياتنا. من أجله وله نكرّس حياتنا، وبين يديه نضع بثقة كلّ ما يمرّ بنا من أحداث.

يكفي أشياء صغيرة لا قيمة لها حتّى نفقد سلامنا وثقتنا في ذواتنا وفي الآخرين، إنّها الهشاشة. يبدو وكأنّ كلّ شيء يسير عكسيًّا. أحيانًا، دودة صغيرة تهدّد حياتنا وتكريسنا تمامًا. في هذه اللحظة، من الأهمّيّة أن نتساءل عن أعماق جذورنا، عن دوافعنا العميقة والدفينة، عن أساس اختياراتنا. لا تقاس صلابة الإنسان بالضخامة أو الاتّساع كالأشجار مثلاً، بل بالعمق، والتجذّر. هذا هو عملنا الأساسيّ ولا يستطع آخر القيام به عوضًا عنّا.

٤. الرسالة تحوّلنا وتغيّرنا

لا يقدّم لنا النصّ كيف انتهى تاريخ يونان. شيء واحد متأكّدون منه: في نهاية خبرة لقاء يونان مع الله، والتصادم معه، يونان لم يعد كما كان أوّلا. اختبر أشياء كثيرة، التقى بأشخاص كثيرين، دخل في حوارات ومناقشات عديدة.

الرسالة تغيّرنا وتحوّلنا! تلك هي ثمرة خبرتنا. لم يصبح أيّ واحد منّا كما بدأ. لقد تعلّمنا أن نقيّم ونرتّب الأشياء من جديد، الأشياء التي كنّا نعتقد أنّها جوهريّة ولها الأولويّة أصبحت ثانويّة. لقد اغتنينا بأشياء كثيرة كنّا نظنّ أنّها فقيرة. لقد تقاسمنا أفكارنا مع الآخرين. لقد تعلّمنا أن نعيش مع من هو مختلف عنّا. تعلّمنا أن العطاء هو أن نتقاسم، والتقاسم هو أيضا أن نأخذ (أفكارًا،....).

لم تصبح صلاتنا كما بدأنا. ربّما تغيّرت في أشكالها، بالتأكيد المضمون صار أكثر غنى.

لقد لمسنا بأيدينا ما يستطيع أن يعمله الله في قلوب من يلتقونه لأوّل مرة. إيمان أخوتنا المسيحيّين يغذّي ويغني إيماننا.

اهتمام وعناية **الله** لنا تقودنا إلى فهم أفضل للإنجيل، حيث الشعور باحتياج الآخرين، والرقّة معهم، بالحريّ تفضيلهم والانطلاق نحوهم. ما فعله **الله** معنا، وقبوله لنا ونحن خطأة، يدفعنا أن نفعله مع الآخرين.

ختامًا، الرسالة تطهّرنا، تطهّر علاقتنا مع العالم ومع **الله**. فلنترك ذواتنا بين يدّي **الله**، لكي يرسلنا، نذهب، ونحيا، ونؤمن، ونحبّ، ونرجو مع من هو مختلف عنّا، فيصير كلّ هذا مصدر غنى ونعمة لا تقدّر. بدأنا بالمفهوم بأنّنا نعرف **الله** جيّدًا، داخلنا، تحت جلدنا، في لحمنا، في أفكارنا، في ثقافتنا. اكتشفنا الآن أنّ **الله** يحبّ الآفاق الرحبة، حيث يحملنا إلى رؤية أوسع وأوضح، فيملأ قلوبنا بأحلامه العظيمة.

"مناجاة"

لقد وصلنا إلى نهاية رحلتنا.

لنفارق يونان.

يا ربّ، لقد استخدمت يونان من أجلنا،

من أجل فحص عميق لضميرنا،

بعد أن كشفت لنا أبعادًا جديدة من وجهك الحقيقيّ،

وحول ما يخصّ كلّ واحد منّا.

لا يبقى لنا إلاّ أن نشكرك،

شكرًا يا ربّ.

لقد ملأتنا بكلمتك، وتملّكتنا،

وهذا هو الحقّ.

شكرًا يا ربّ،

لأنّ اللقاء معك، والإصغاء إليك، والتحدّث معك،

هو دائمًا نعمة لا توصف.

أنت، كعادتك، دائمًا،

توسّع آفاقنا،

تفتح قلوبنا،

وعيوننا، من أجل رؤية أفضل،

تحرّك خطواتنا بنشاط ،

وتقود حياتنا.

شكرًا يا ربّ.

لا تنسانا، أبدا!

نحن أيضا، يونان،

نحتاج لعلاج، واهتمام، ورعاية.

آمين.

تساؤلات

١.هل مستعدّ لمساعدة الآخرين، خاصّة الذين يضعهم الله في طريقي، الذين بنوع ما مسئول عنهم، هل أساعدهم على إخراج الإجابة عن أسئلتهم من داخلهم "التوليد الذاتيّ"، واختيار الحلول الأفضل لمشاكلهم؟ هل أساعدهم على السير بأقدامهم وليس بأقدامي؟

٢. هل أيأس وأحبط سريعًا بسبب الشرّ الذي أختبره نتيجة ضعفي، أو الذي يحيط بي؟ هل أحاول ببسالة تفجير الخير في كلّ شيء، أيضا في الأوضاع الأكثر سوءًا؟ هل أؤمن أنّ كلّ شيء نعمة من الله، وثمرة عناية الله، أم فقط على المستوى الفكريّ؟

٣. هل أسَعد بالقليل، وكيف؟، أم أبحث عن الأشياء والمناسبات العظمى للسعادة؟ هل حياتي مؤسّسة على الصخرة، لها جذور، أم تنهار سريعًا أمام الإحباط؟

٤. هل أضع حياتي بثقة بين يديّ الربّ في حالة أنّ الأمور تسير عكس ما أتمنّى؟

٥. هل لديّ مرونة للتغيير كثمرة لقاءاتي مع الآخرين، هل أصبح أكثر انتباها، وانفتاحا تجاه ثقافات وحضارات الآخرين الذين أتواصل معهم؟ أم أنّ كلّ شيء يمرّ بي، دون أدنى تأثير؟ هل أتفاعل باجابية مع أحداث حياتي؟

٦. هل يثري إيماني بلقائي مع الآخرين، أم ينحصر تفكيري، في هذا الإطار، على العطاء دون الأخذ، أي دون أثراء الطرفين؟

الخاتمة

لقد وصلنا إلى نهاية رحلتنا الإنسانيّة والمسيحيّة، برفقة يونان.

لقد كان يونان شخصيّة مدهشة ومجازفة أمام مسيرة حياتنا، لأنّ في حياته اكتشفنا حياتنا.

" فإن كنت أنت أيّها الإنسان أشفقت على نبات اليقطينة، أفلا أشفق، أنا الله، على البشر؟". بهذا السؤال الرائع الساخر يُختم السفر، إنّه السؤال الأوحد الذي يتماشى مع الأسلوب الساخر الذي يشمل السفر.

فإن كانت الشفقة سببًا يدفع يونان تجاه نبات اليقطينة من خارج إسرائيل، فلم لا تكون الشفقة أيضا سببًا لانفتاح الله على شعوب من خارج إسرائيل؟ ألاّ يحقّ لخالق كلّ شيء أن يظهر محبّته تجاه الجميع؟

يختتم السفر دون إجابة من يونان. لا نعرف إن كان أسلوب الله التربويّ قد نجح مع يونان، أم لا؟ لا نعرف إلى أيّة درجة استطاع يونان أن يتخطّى الحاجز الذي حصر فيه نفسه، وتقوقع فيه؟ لا نعرف إن كان قلبه قد انفتح على الحبّ لأقصى درجة، أم لا؟ أيضا، لا نعرف إن كان قرر ولو مرّة واحدة أن ينظر في وجه الله، أم فضّل أن يستمرّ في رسم صورة لله تتّفق ورغباته؟

ولا نعرف أشياء كثيرة عن هذا البطل الشرس والمثير خلال سفر قصير يتكوّن من أربعة أسفار ؟كلّ هذا يعيق إصدار حكم عادل ونهائيّ على يونان. إلاّ أن ضرورة جعل الخاتمة مفتوحة، أمام هذه التساؤلات، يدفعنا لقذفها على شاطئ حياتنا، لقبولها أو رفضها.

في الوقت نفسه، ما نود أن نظهره، في أن مبادرة الله ورغبته الحثيثه للدخول في حوار، ذو طبيعة علاقية، مع يونان الذي يمثل كل إنسان، من أجل رسالة، قد أثمرت، أقله تركت تساؤلات ساهمت تحول جذري في حياة يونان. فلم يعد يونان كما كان في البدء، دون شك لقد أغتنى بحضور الله في حياته، في حواره مع البحارة الغرباء، في صلاته من جوف الحوت، ووقت الأزمات. ذهب

إلى حيث لا يريد، إلى مدينة نينوى، حيث دعاه الله إليها، أعلن رسالته، رغم صعوبتها، ورغم ضعفاته وحدوده أيضا، وتصوراته الخاصة عن الله. الله لم ييأس من الإنسان يونان، يدعوه مجدداً ويعونا فيه لنتجاوز حدودنا من أجل رسالة أكثر إشراقا وانفتاحا نحو الآخرين، لتحقيق حضارة المحبة والأخوة العالمية.

إنّها مغامرتنا الإنسانيّة، أو بعبارة أخرى، هي مغامرة الفقراء المسيحيّين، الذين هم نحن، في مسيرتنا.

فهرس

يطلب الكتاب من مكتبة القديس أنطونيوس الكبير
للأقباط الكاثوليك
٧ شارع يوسف سليمان- الفجالة
ت: ٢٥٩٠٥٥٩٣ -٢٥٨٨٧٧٤٣
وجميع المكتبات الكاثوليكية بمصر
Antonios_fayez@hotmail.com


Bibliotheca Alexandrina
0942902